حكايات متسكعة

جمال طه غلاب

توطئة

أنه من غير المعقول أن يكون العالم كله من العقلاء والوجهاء والظرفاء الذين لا يشكون من عسر في الحصول على الوجبات التي تقيم صلبهم ولا في هضم تلك الوجبات ولا مشقة تنغّص عيشهم إذا ما فرغوا للفراش، هؤلاء هم سادة العالم المألوفين وعملهم هو إفهامنا أن الحياة هي ما يسير على تلك الوتيرة فحسب وهم مرموقين ربما لأن حياتهم مزّقمة وربما لإبحارهم في المياه الآمنة و ربما لأن تلك سنة الحياة.

لكنما الكون له سادة قلما يرفع الستار عنهم أو يحمل دأبهم محمل الجد.

هذه محاولة لمعاينة ما خلف الستار.

الحكاية الأولى: حكايتي

اننى عاطل وأتسلى بالتسكع وتجمعت لدىّ مشاهدات عديدة سأصف لكم ما علق منها بالذاكرة وحكايات جمة سأروى لكم طرفاً منها وأرجو السداد والتوفيق بعدما فشلت و وجدت نفسي خارج الحياة وأنا الذي حلمت كثيراً بأنني في قلب المعمعة أحمل السيف وأشق الطريق وأفتح بيدي العاطلتين هاتين أبواب الألمعية والنجاح والثراء وحسناء تتعلق بذراعي وكنت أحلم بأنني سأودع القرن العشرين وأنا أكثر وعياً وتفتحاَ وأقل خوفاً وقلقاً, هذا ما كانت تقوله الكتب, كتب المدرسة والكتب الأخرى التي تقلل من شأن الكتب المدرسية وتسخر منها وتعدها عاملاً مهماً ساهم مساهمة كبيرة في تكريس التخلف, هاهو القرن الأول بعد العشرين يطبق عليّ وأنا ناء النأي كله عن أحلامي كبيرها وصغيرها, ودعتها جميعاً, واريتها الثري ولم أعد أفكر حتى في زيارة قبرها للترحم عليها وقراءة الفاتحة فتعالوا نتابع الحكاية الأولي وهي حكايتي.

حكايتي

قبل أن أبدأها أود لفت نظركم إلي أمور مهمة يجب ألا تغيب عنكم إذا تفضلتم وصبرتم وتتبعتم هذه السطور. الأمر الأول الهام هو مسألة البؤس. لا يستطيع كائن من كان إنكار أن البؤس هو سمة عصرنا الراهن.الكدر والهم يسربلون الدنيا والخلق ماضون في العيش و فرصهم في النجاة من ربقة الشقاء شحيحة وبعيدة ونادرة وهى باختصار لبن عصفور ولا أظن أن الغلالة السوداء التي ستلازم الصور التي سأصفها و رنة الحزن الركيكة التي ستقعون عليها في الحكايات هي من تدبيري, كل ذلك موجود وقلما ننجو منه وإذا ما نجونا فالنجاة مؤقتة فهو يتركنا فقط ليسترد قواه ليعود أكثر قدرة علي البطش, يعود وقد عرف لنفوذه مواقع جديدة يبسطها فيه, ذلكم هو البؤس وهذا عصرنا و ما هو من عندي قليل وليس من شأنه أن يخلّف شيئاَ ذا بال فأنا نفسي ليس بصاحب شأن وموهبتي الوحيدة هي التسكع بلا كلل.
الأمر الثاني الهام يتعلق بالتسكع لماذا؟ احترفت التسكع طواعية لأنه المهنة الوحيدة الشريفة التي لا يبدلها العقلاء بغيرها مهما كان الثمن. اختياري له أبعاده الفلسفية كما ترون فان كنتم لا تحبون الفلسفة ضعوا الكتاب جانباً و استبدلوه بالمسلسل, بالنوم أو بالخروج لتتسكعوا بلا هدف لتقفوا علي الأمر بأنفسكم, لتروا كيف أن العالم ترهل ولتسمعوا الأنفاس المتثاقلة للعصر وهو ينوء بحمله الفادح مجر جرا جثمانه الهرم في جنبات الكون الواسع.
الأمر الثالث هو التسكع كيف؟
نسكن في منطقة مما يدعونه بالأطراف. هناك أطراف للأطراف التي نقطنها.شانتي تاون وباك تاون وتاون تئن وتاون تموء وأسواق بعدد أيام الأسبوع متنقلة وسوق جهنمي لكل أيام الأسبوع ثابت مقيم لا يتزحزح وبشر يثيرون العجاج ويحجون إلي قلب المدينة ويعودون وقلوبهم متعبة ومركبات مدفوسة عن آخرها بالسلال والمخالي والناس و صاجات في الدفارات وصباحات باهتة وبشر مبهوتون وظلم وبهتان وكوميديا سوداء وتهريج وضجيج وعجيج بلا حساب وتكّدس وتلّبس ولو أطلقت لهذا العنان فلن أفرمل فدعونا من هذا لأخبركم أن هذا هو المناخ الأنسب للتسكع.
عملي هو استقبال الشمس شروقاَ وتوديعها غروباَ. عمل جليل وان لم يحظ بقبول ولا اهتمام البشر إلا نادراَ.منذ مغادرة المنزل أتخطي الأزقة وأقطع الميادين كأنني في مهمة لا تقبل التأجيل, لكنني أتمّهل في الأسواق والمحطات وفي كل مكان يتجمع فيه الناس لأن تلك هي مواقع المادة الخام للحكايات, ذلكم هو منبعها الثر الذي لا ينضب.حكاياتي كثيرة ومتشابكة ومتداخلة وقد تسألون ما الغاية منها, لماذا بالله عليك توجع رؤوسنا بحكايات فارغة منسية لا تعني شيئاَ حتى لأصحابها وأنا مستعد للرد علي سؤالكم والجواب عندي جاهز وسأردده علي مسمع كل من يجرؤ علي التحرش بحكاياتي العزيزة ولو استدعى الأمر استخدام

أجهزة تكبير تشتغّل بالطاقة الكهرومغناطيسية فلسوف افعلن لأعج عجيجاً وأضج ضجيجاً.

ألا تحسون بكل هذا الضجيج, كل هذا الصخب, تلك الضوضاء أم أنكم لا تشعرون لأنكم فيها منغمسون.أنني أتقدم بهذه الحكايات كنوع من المساهمة في إذكاء التداعي والفوضى المتأججة في جبانة هايصة يسمونها الحياة.لن أخسر شيئاً ولا أنتم الكاسبون.إنها متنفسي الوحيد فدعوني وشأني أو تعالوا معي.

العالم يعج بالأبواب الموصدة.هل تنفع هذه الجملة مدخلاً لحكايتي؟وما الذي يجعلها لا تنفع؟ سوى كانت تنفع أو لا تنفع, فأنا أجدها مناسبة للدخول في موضوع وتحديداً موضوع شائك ومعقد.تعقدت الأوضاع بعد حصولي على الشهادة الممهورة بتوقيع العميد....ولكن لماذا أحدثكم عن الشهادة وفي نيتي تجسيد تراجيديا العالم وأملي كبير في استدرار الدموع.ولكن كم هو صعب ذلك.هاأنذا أضع بين أيديكم شهادة ممهورة بتوقيع عميد ما وأقذف بكلمة تراجيديا بين الكلمات وأنني لأرى في ذلك ما يكفي لتكوين حكاية, هذه هي الخيوط فانسجوا كما يحلو لكم, على هواكم فكل العناصر متوفرة، فمن يرغب في الإثارة لديه شهادة تراجيدية ومن يحب أفلام الأكشن فما عليه إلا حشر البطل بين الكلمتين, أي كلمتين ومن يهوى الأركولوجيا فلديه ما ينفع, سأترككم هنا وأنتقل إلى حكاية أخرى فانسجوا على كيفكم.

حكاية إسماعيل والهرة

نهض إسماعيل من النوم مبكراً فوجد أمه الحاجة بتول مكفهرة وقد أيقظته مطاردتها للقطة. إسماعيل لديه شهادة (تراجيدية أيضاً) وينتظر فرصة سفر إلى الخارج ومارس السياسة لكن على خفيف. في الفترة الأخيرة تكاثرت شكوى بتول من القطة:أتت على الكتاكيت واحداً تلو الآخر وواظبت على دلق اللبن ونجحت غير مرة في قطع الحبل الذي تعلّق عليه بتول الشرموط وما زاد من غضب الحاجة هو أن الفئران تسرح وتمرح وتقيم مهرجانات في الدار بينما الهرة اللعينة فالحة فقط في الدلق والقطع وهاهي الآن فرّت وجلست بأعلى الجدار تلعق وتتأمل الوالدة الغاضبة بلا مبالاة.
أليس ذلك أمرا محزنا؟ ما علينا.مسألة الحزن هذه داء بلا دواء.حزن وأسى وشجن والى أخره.ذلكم باب لو فتحناه فلا غلق بعدها. أحسن تركه مسدوداّ. ألم يرد ذكر الأبواب الموصدة بمكان ما. علينا نسيانها ولا ينبغي حتى التفكير بها ناهيك عن الدنو والطرق.
كانت القطة تلّعق بتلذذ والأم تهرج والشاب المستيقظ لتوه يرمق المشهد كله بنظرة خالية من البهجة. وما الذي يبهجه بالله ؟ ولكن ما علينا. مثل هذه الأسئلة تصرفنا إلى أمور جانبية. هل هذه عيشة. كان ذلك ما تقوله بتول وقالت فيما قالت أن الهرة جننتها وذكرت شيئاً عن سم يدس وعكاز مضبب ينزل به على أم رأسها وأضافت أن يوم سعدها هو يوم انتقال القطة إلى العالم الآخر..ولكن هل للقطط عالم آخر؟أوف . الأسئلة الحمقاء.أتجنبها ولكنها تأتي لوحدها.تعرف مكانها ولا تدع فرصة تفوت.أضع نقطة وأخال أن الجملة قد انتهت فإذا بالسؤال يكتب نفسه.صدقوا أو لا تصدقوا.أفرغ من الكتابة وعندما أعود للمراجعة أجد الأسئلة قد طرحت نفسها.لم أخط منها حرفاً.الأسئلة تسأل النصوص والنصوص تسأل العالم والعالم أصم.
لذلك يجد إسماعيل نفسه مضطراً لادعاء الصمم.لكن زعيق أمه خرق أذنه.نهض و وعد الحاجة أنه سيحسم أمر القطة. سأحملها في كيس وأرميها في الخلاء.ذلك ما قاله وخرج.نسى الموضوع وعندما رجع وجد أمه قد صادتها و أودعتها الكيس وأحكمت ربطه.كان الليل قد تقدّم وهو مرهق لكن السيل بلغ الزيا فيما يتعلق بحكاية القطة.حمل الكيس وخرج لاعناً ساباً ولم تهمد طيلة الطريق فلكمها عدة لكمات.
عاصم رأى إسماعيل وهو يحمل الجوال في جنح الظلام فألتمعت في رأسه فكرة ذهبية (فكرة عسجدية أو تبرية أو ترابية حتى) وأسرع من البرق هرع إلى حاتم.
يحسن بي الرجوع إلى الوراء قليلاً لأدخلكم في الصورة وتمسكوا بالخيوط ولو أنها من نسج عنكبوت لا نراه ولكنه كبير بحيث يتحكم في مصائرنا وحكايتنا وسائر الحكايات شئنا أم أبينا.يقال أن حاتم متيم وصب ومستهام ومخبول عاشق أسير والبنت هي رندة:قمحية ومهفهفة تسلب العقول.يقال أنه بذل بذلاً وسعى

سعياً بلا جدوى,لانفع,في كل مرة يقبض الريح.وبلغه أن لدى البنت ميل إلى صاحبنا صاحب القطة وأن صاحب القطة ميله إلى أخرى وأنها سعت إليه فصدها صداً هيناً كما هو حال الجناتل والنبلاء والمتنابلين المتأثرين بقراءات متفرقة وأفكار مشتتة مستلة من كتب غير رائجة و أن ذلك الصد لم يثن عزمها بل شحذ الغرام فلمع نصله واحتدت شفرته وكان ذلك يبلغ حاتماًَ أولاً بأول عن طريق عاصم الجار القريب من كليهما رندة وإسماعيل فتأكله الغيرة ويشربه الحسد وتتخذه الضغينة مزّة لها وهي تعاقر الخمر.ولكن ما أصعب حكاية الحكايات.إنني بدأتها وينبغي أن أتممها.وأين وصلت بها الآن؟هل نحن على مقربة من الذروة؟هل الفلاش باك مقنع وفي محله.هل تسمعون هدير الباطن؟وماذا تنتظرون؟

ماذا بالله أنت فاعل يا تومة وما السبيل إلي إطفاء نار الغرام وفضّ اشتباك الحب الشابك من طرف واحد وإعادة شبكه ليشبك حيث ينبغي له أن يشبك.ألا يقول الفلاسفة أن الحب شباك يتخبط فيها بنو آدم وبنات حواء وأنه شربكة لا يحلها حتى الشربكة.ولكن متى قال الفلاسفة ذلك وأين هي الحكاية؟لا تقلقوا بشأن هذا الأكليشيه الذي سيتكرر مرات ومرات, ألا يقول الفلاسفة, قال الحكيم, هكذا يقول الفلاسفة..الخ الخ وحتى إن لم تكن النسبة إليهم صحيحة فلا شك أنهم قالوا ما هو قريب ومشابه لما أقوّله لهم فلا بأس إما عن الحكاية فهي قادمة وهاكم ما يلي:

امتلأ قلب حاتم حباً وحقداً وحدث أن انتهى إليه أن إسماعيل يمارس السياسة وغير مهم أنه يمارسها على خفيف, و قد عنى ذلك لحاتم الكثير بعد التحاقه بالعمل في الدائرة الأمنية (لم لا نقول المربع الأمني) ربما لأن الدائرة لا تبدأ ولا تنتهي, ربما ولكن زنازين التعذيب وغرف الأشباح مربّعة ولأوراق التي يطبعون عليها استدعاءات المشبوهين مربّعة وقد أمضى حاتم فترة التدريب في معسكر نائي مستطيل وكان العشق مضنياً وقد أخذ على نفسه عهداً أن يورط غريمه في قضية تمسّ أمن الثورة نفسه ليذهب وراء الشمس, وراء المريخ، إلى الجحيم, إلى لظى, إلى سجين إلى الآخرة..ولماذا نتعب أنفسنا, يزيحه عن الطريق فيسلك له ويظفر بذات القد والخد والنهد, ست الريد الحبها جاري في الوريد والتي جنّ بها أهل السافل والصعيد والتي باختصار لها نظرة تصهر الحديد كما أن كل فارس أمامها رعديد..ألخ, ألخ.

حاتم وقته يمضي إما في التفكير بمكيدة محكمة يضيع بمقتضاها إسماعيل في خبر كان وأخواتها أو في استعادة صورة رندة وهي تنتظر الحافلة أو هي داخلة الحلة دخول الفاتحين أو و أو و أو باختصار مرة أخرى كان يحلم بالإطاحة به والظفر بها واستعان بعاصم صفيّه وخليله في رصد تحركات إسماعيل.كان يمده بتقارير مفصّلة عن تحركان الأخير.وبينما ينتظر حاتم شيئاً ذا بال يأتيه عاصم بحكايات جبانة وجعانة عن شاب يمكن أن يفعل أي شئ وأن يكون أي شئ إلا عضوا فعالا

في شبكة تخريبية تهدد أمن الثورة والبلاد.ونزيد من عندنا فنقول أنها تقارير تنفع محللاً نفسياً يعد بحثاً شاملاً يتأمل فيه عذابات إنسان العصر وخيبته الثقيلة في كل شئ.
ولتأكده من أن إسماعيل أبعد ما يكون عن رندة و أن الفتاة لم تعد تحفي تعلقها به عن أحد فان كراهيته له تفاقمت حتى أنها غدت كالفقمة التي هجرها بعلها.(لا ندري هل البعل يهجر فقمته وهل أن أحوال الفقمة إبان الهجر صالحة لنشبه بها أحوال من فاض به الكيل فبات يضرب يمنة ويسرة بلا هدى-لكنه تشبيه على كل حال وربما هو خليق بلفت النظر إلي الجموح العارم والرغبة في الخروج عن المألوف في عالم هو كالحلوف, لكن كالحلوف المجنون).إن قلبه النابض بل قلبه الرابض لن يسمح للمسخرة أن تبلغ مداها ولابد أن ينال المجرم عقابه العادل.
والآن هاهو عاصم أتى بلهفة من عثر على باب السراديب المؤدية إلى كنوز الأرض.أنتفض القلب الرابض انتفاضة عنيفة وهبّ ليضع حدّاً لعذاباته.
مسكين حاتم وإسماعيل هو الآخر مسكين ابن مساكين, أنا مسكين, جميعنا ضربت عليه الذلة والمسكنة ولا سبيل أمامنا للاشتراك في نادي القلوب الوحيدة وقناة الخرطوم الدولية لن تبث ابدآ أفلاماً تشبه حياتنا.
لعبت الأقدار دوراً لا يستهان به في إضفاء أبعاد فيلمية على حكايتنا فقد كان التيار مقطوعاً.البشر يحبون التيارات, إن لم توجد يصنعونها صنعاً وهم يحبون أكثر قطعها, هكذا يقول الحكماء.أقوال الحكماء مطبات لا محيص لمن يتخبط في مفازة ليل زمهرير سموم العالم من أن يتعثر بها.مضى إسماعيل بقطته بينما في أعقابه شبحان يترصدان,يتلصصان,لهما قلبان وهاهما متحفزان.
عاصم أفهم حاتم أن الكيس به منشورات.منشورات؟حلو جداَ, عز الطلب, دليل مادي قاطع والدائرة لن تتردد في زجّه مع بقية الخونة والمارقين(المرقة والخائنين) ليذوقوا العذاب بما كانوا يكسبون.صيد سمين هو هذا البعشوم سيما وان بحوزة الدائرة تقريران ملفقان لا يشك في أنهما وثيقا الصلة بالنشاط التخريبي المزعوم فويلك يا بعشوم.
يرتبط الويل بالليل وها نحن في قلبه والمطاردة على أشدّها. تابعاه وهو يدور دورة طويلة..تمويه هذا لا ينطلي على عاشق ولهان ولكنه غافل جاهل لا يعلم ما ينتظره.لم يسبق لحاتم أن اضطلع بمهمة حقيقية تشتمل على مطاردة و اقتحام و إطلاق نار لكنه تحسس طبنجته إذ استبشر أن المنال بات دانياً و الأحمق الطويل يقدّ الخطى صوب الفخ. هذا ركب بلا حاد, بلا دليل, ركب لا يعير النجوم التفاتاً رغم أنه يضم قيساً وعاطلين.قفا نبك.وما الذي يدعوه للإبطاء إن لم يكن قد بلغ غايته.ها هو سور المدرسة العالي, وتلفت الشبح مرات ومرات وهو يتأهب لفتح الكيس وقذف حمولته في المدرسة.وشبحان على عجل وشهر سلاح وصاح

شبح:ثابت.وتسمّر شبح وكيسه وتقدّم شبحان ببطْ أول الأمر ثم بسرعة بعد ذلك.المشهد كله تقليد ردئ لفيلم بوليسي ردئ أو فيلم أشباح تخاف من الأشباح.
شدّد شبح قبضته على كيسه بعد خوضه معارك خاسرة مع وضد كوسو وصاح شبح:هات الكيس يا رعديد فسلمه له وعندما فتحه ماءت القطة هكذا:ناو, ناو, ناو.

حكاية السكران حارس القمامة

هذه الحكاية حكاها سكير مشهور, يرويها على أنها من بطولته, هي فيلمه وهي his masterpiece, ألّفها ومنتجها و أخرجها و الإكسسوارات من عنده وقد رواها الناس عنه وأنا هنا أحاول رواياتها كما رواها هو والناس.
أول ما يفعله السكير المخمور المشهور فور رجوعه من الخمارة هو الاقعاء والتقرفص في قلب ميدان مهجور يرمي الناس مخلفاتهم فيه. يبدأ ذلك عند الغروب ويدوم حتى وقت تنقطع فيه الدروب لكن الفجر أبداً لا يدركه هناك.متى يدركنا الفجر؟متى ندرك الفجر؟هذا كله في علم الغيب.الفجر نفسه شكل من أشكال الغيب كما يقول الحكماء.
عليّ أن أبين لماذا يسكر الناس قبل الشروع في الحكي.قال جدي و هو حكيم كان سكيراً على أيام فتوته ثم منقطعاً للعبادة ومتفرغاً لنثر الحكم الدراري شيخاً قابعاً على التبروقة التي تباهى بأنها من جلد النمر: أن الكأس الأولى تشعره أنه حصان وأنّ الثانية تحمله إلى مرتبة الوعول ولأنه على أيامه لم يعرف التصوير الفوتوغرافي فانه من العسير التثبت من القرون المتشابكة, والثالثة تصقرنه أي تجعله صقراً وعندما يغدو نمراً, يتطاير الشرر من عينيه فتبرقان كالأحجار اللئيمة وتحرقان, و ذات مرة جعلته كأس مجنحاً كالبراق لكن الكؤوس بعد أن تجرّب الضواري جميعاً لاتجد مسكاً تختم به رحلة البراري سوى الفأرية والجرذية والحنفسائية.يتحول السكران طال السكر أم قصر إلى فأر وخنفساء وهوام هيّام.
هل أواصل أقوال جدي أم أذكر لكم أقوالاً أخرى بشأن السكر, أم أشرع في سرد حكاية القمامة التي تنتظر السكران ليحرسها كل مساء.
لا تقلقوا.سأفعل هذا كله.يقال أن السكر مرات يكشف المحجوب ويخفف عن الإنسان الوطأة إذا كان علي أمره مغلوب (يخففها إن وجدت وبالعدم فهو يجلبها ويضعها علي العاتق ثم يخففها) وهناك سكر بلا خمر كما تعلمون..ولكن هل هذا من شأننا.
هل جدي شيخ أم شبح وهل التبروقة من جلد النمر حقاً أم كان يقول ذلك من باب التباهي وكيف يقضي النمور الليل في الغابات؟هذه جميعاً أمور تحتاج إلي كتب ضخمة ويعلم الله أنني شاب طيب تتهدده أخطار جمة ويريد أن يحكي حكايات جميلة ولا يعرف كيف يفعل ذلك.
سأحاول تعلّم ذلك, ولكن ماذا كنا نقول وما الذي أريد كتابته الآن؟
السكير بطل قصتنا رجل في أواسط العمر.ولكن بأي مقياس يتحدد أن شخص ما في أواسط العمر؟دعونا من عمره الآن و لنعد للحكاية.
كان وحيداً.والده مات وتركه وحيداً.أمه ماتت وطبعاً تركته وحيداً.الأخوان والأخوات, الأخوال والخالات..الخ, من لم يمت منهم لم تعد تربطه به رابطة, لأنهم في الأرياف البعيدة والمدن وأشباه المدن يتخبطون وصدق من قال أن من لم يمت بالسيف مات بالمدن والريف.ماتوا ولكنهم تركوا له بيتاً فترك الوظيفة وعاش في

ركن منه وقام بتأجير الباقي وبات يسكر بالنقود التي يستلمها مطلع كل شهر وباتت مهنته هي سكير الحارة.هذه مهنة منحها له أهل الحارة عن طيب خاطر رغم أن هناك عدد لا بأس به من السكارى والحيارى وهناك مقاطيع ولكنه بزّ الجميع بجعله السكر مهنة ينهض لها ابن آدم باكراً في الصباح ليعود منها في آخر الليل.

يصف اليوم المشهود للناس فيصفه الناس فيقول ويقولون:صحوت من النوم سعيدا فأمس عدت باكراً وكنت بائساً ويائساً ولكنني استلمت الإيجار بعد عودتي مباشرة وعليه فسأقضي اليوم كله في الخمارة وسأشرب حتى ينتصف الليل.

عليّ المحافظة علي هذا المال حتى لا أجد نفسي مضطراً للاستدانة والتخبط والمهانة. عند أول كل شهر أقول مثل هذا الكلام لنفسي لكن النقود اللعينة تضيع في اليوم نفسه الذي استلمه فيها, النقود لا سبيل للمحافظة عليها, خصوصاً إذا كان ابن آدم مغرماً بالخمر كما يقول الفقهاء.ربما بعد الشرب أتمكن من التفكير في الموضوع بصورة أفضل.الآن أتهيأ لسكرة لا تنسى.واستمر يصف ذلك اليوم فقال:

تحممت جيداً كما لم أفعل منذ وقت طويل ومّشطت شعري وتهندمت ثم خرجت إلي الطريق.صفّرت,مشيت هوناً,الثروة في جيبي واليوم لابد سيكون رائقاً.عبرت الأزقة بخفة عصفور وللمرة الأولى شعرت بشئ من الألفة نحو الميدان الذي يتعين علي عبوره والذي يذّكرني بالمصائب حين أعبره لاسيما بعد انتصاف الليل, أسود وصامت مكفهر تمرح فيه الكلاب و ذات مرة داهمني هناك ثلاثة عمالقة فتشوا جيوبي وقلبوا ملابسي فلم يجدوا مالاً عندها أخذ كل واحد منهم يدفع بي ناحية الآخر ثم جنّ جنونهم بغتةً فشرعوا في صفعي ولكمي وركلي وأنا سكران وحيران, أشبعوني صفعاً وركلاً ولكماً لا قبل لحمار بمثله ثم نفضوا أيديهم تاركين إياي بين الحياة والموت ومن يومها و أنا أكره ذلك الميدان و لا شكّ انه يبادلني الشعور نفسه لكنني في ذلك الصباح حييّته: صباح الخير يا ميداني و وسعّت من خطواتي حتى بلغت زقاقاً تنزوي فيه الخمارة وهي بيت يحاول أن يوهمك أنه غير موجود لكن رائحته تدّل عليه من بعيد.لي مع هذه الخمارة المتهاوية عشق قديم وحكايات غابرة وقد مرّ عمر كامل وأنا لا عمل لي سوى الدخول إليها في الصباح الباكر والخروج منها في آخر الليل.

بدت الرائحة لذيذة هذا الصباح وأصلحت من هندامي قبل خطوات من البيت وتنحنحت قبل أن أدفع باب الصفيح وأدخل.ما من زبائن, لكن كل شئ معد لاستقبالهم وربما كل ذلك لاستقبالي.جلست على بنبر تحت التعريشة المهلهلة ولم يبد على مرزوقة أنها انتبهت لوصولي وهي مشغولة بإعداد المكان فتنحنحت again فالتفتت كما ينبغي لست عرقي أن تنتبه, تلفتت فحييّتها بحرارة فردت دونما ترحاب وكان السبب معروفاً ومألوفاً فعليّ دين لم أسدده, وتقدمت نحوي

كما يتقدم حكم يتأهب لإخراج البطاقة الحمراء وقبل طردي أو تحذيري سارعت إلي نتش ورقة نقدية براقة من جيبي دسستها في يدها وطلبت شراباً محترماً.أحضرت دلواً تعوم على وجهه قرعة صغيرة فلحست شفتي وجذبت الدلو وملأت القرعة مستفتحاً يومي برشفة طويلة مركّزة كثيفة اهتزت لها الجدران وأقشعرّ منها الظل.أنهيت الكأس الأولى,بل القرعة الأولى واستسلمت لتيارها الذي جرفني بتؤدة وأخذ يؤرجحني أرجحة هينة لينة أحسست معها بالأمان والدفْ والحنين والحنان ونهضت في خيالي شاشة سينمائية تتالت عليها صور سرية غامضة لا مثيل لجمالها وتدفق غناء بهيج ملأ ما بين الأرض والسماء وأحسست بأنني ملك على العرش.لله درّك أيتها الكأس الأولى يا سيدة الكؤوس يا بوابة النعيم.لا يعدل الكأس الأولي شيْ واني أعبدها وأقدس الرشفة الأولى.
مثلما قرأت فان الكأس الأولى عند صاحب المزاج مثل السيمفونية الأم لدى الموسيقار الكبير, كل بقية أعماله تنويع عليها, كذلك هي الكأس الأولى بقية الأكؤس أصداء لها وتنويع عليها لذلك فأنني لا أتبعها بأخرى أو بالأحرى لا ألوثها إلا بعد زمن طويل.تركت القرعة تعوم في الدلو وسرحت ببصري بعيداً وبعقلي أبعد.من المفروض أن أكون متزوجاً وصاحب عيال ولكنني ليس كذلك. من المفترض أن أكون رجلاً محترماً بعمل مثمر وسيارة ورصيد في البنك لكن شيئاً من ذلك لم يحدث فالثروة ضاعت والبيت الذي هو البقية الباقية مما ورثته سيضيع هو الآخر لأنني أنوي بيعه بثمن بخس وسأسكر بالثمن.لا أعرف هل أنا سعيد أم شقي.الأرجح أنني شقي ومع ذلك لا أهتم.حاولت الدخول إلي الحياة من الباب الذي يدخل منه الجميع لكنني وجدت أن ذلك لا يناسبني.ابتدرت الدخول فوراً بموضوع النساء فإذا هو موضوع فاشل طويل عريض يصدع الدماغ ويوجع القلب.قابلت نساء كثيرات و ما حدث هو أن جميع اللواتي قابلتهن إما أنهن يرغبن في الحصول على المال وإما أنهن يرغبن في الزواج و ٩٠ في المائة منهن يرغبن في الاثنين معاً فلم أحمل الموضوع محمل الجد.تركت العمل وبت أسكر بلا حساب.قضيت وقتاً أحياناً هو ممتع مع الراغبات في المال أما نساء الزواج فقد هربت منهن بكل قوتي.شرع المال الذي ورثته في التبخّر وما بذلت جهداً في منعه فلما صرت معدماً أجّرت البيت.جاء رجل من أصدقاء المرحوم أبي وأخذ ينصحني بالعودة إلى العمل وظل يطاردني صباح مساء ودخل واسطة خير هنا وهناك ولم يدعني إلا وأنا موظف حكومي مرة أخرى.موظف في مصلحة بها ملفات وعنكبوت ونساء يرغبن في الزواج وقوادين ورجال وخط الشيب رؤوسهم يضعون النظارات السميكة ويقضون اليوم وهم يسبحون في بحر من الغبار, قضيت بها أسبوعاً واحداً ثم فررت منها إلي غير رجعة.تثير حياتي الشبهات وشهية الجيران وأبناء السبيل فهؤلاء لا يتركون مناسبة للنصح والإرشاد والتوجيه إلا وصبّوا عليّ جام ذلك جميعه كما يصب الزيت الساخن على الجرح

المفتوح.لم يجدوا مني استجابة فباتوا يسخرون وكفّوا عن الحديث حول ما يجب على الواحد أن يفعله وما على الواحد أن يتجنبه وباتوا يجدون سعادة قصوى في وضع تلك الابتسامة على شفاههم كلما رأوني والحمد لله أنهم كفّوا عن ملاحقتي.
دعونا نقطع على السكير المشهور تأمّلاته واسمحوا لي أن أتدخل معلّقاً.كأنما كان السكير(لاحظوا أنني أصر على لفظة السكير رغم أن الرجل يمكن أن يكون فيلسوفاً أو ما يشبه الفيلسوف لأننا تعودنا رؤية جانب واحد وترك بقية الجوانب)..المهم, كأنما كان يشعر ويحس في دخيلته أن هذا اليوم سيكون يوماً مختلفاً في حياته و إلا ما الذي دعاه للقيام بجردة الحساب تلك والعودة إلي الوراء وإثارة مسألة السعادة والشقاء على هذا النحو.يقول الحكماء والعظماء أن ابن آدم لديه حاسّة تمكّنه من استباق الأحداث والتهيؤ للمنعطفات المصيرية و العلامات الفارقة التي لا تكاد تخلو منها أتفه الحيوات واقلها حظا والحظوظ مذكورة هنا للإشارة إلي أن بعض الناس يولدون ويموتون من دون أن يحظى ما مروا به بالحصول على لقب حياة وغالباً ما يكون الاستعداد للأمور الجليلة بالوقوف مع النفس و التلفت نحو الخلف و مراجعة الشخص لحياته مراجعة مؤلف مهووس بالدقة.لعل الإنسان يسعى بذلك لوزن وقياس ما فات ليقذفه بوجه ما سوف يأتي.وهل يفعل الإنسان ذلك لردّ ما سوف يأتي أم لأنه يريد أن يخلط الأوراق ليحشر ما فات في ما سوف يأتي.كلّها أمور حاصلة ومجرّبة ولعل نفحة من روضة القصر هي التي هبّت على السكير فحملته على أن يتدّبر ويتفكّر تاركاً القرعة قبالته سابحة في المريسة.
الأحداث التي وقعت قبل بلوغ الميدان لم تكن بالغة الأهمية.أسرف على نفسه في الشرب وغالى في السكر.يقول عن ذلك:
توالت الكؤوس وألفيت نفسي فيلاً من السكر والنشوة.كنت لا أتوقف إلا لأسمح للهدهدة بأن تغدو وتروح بي.اهتديت إلي الأرجوحة التي تضيع من الناس فتشبثت بها.تذكرت أمي وطعم الصباح وشذا البن في الظهيرة وظل طفولتي الذي حسبته مديداً ولكنه تلاشى وتركني في الهاجرة.تبدى لي أن كل ما وقع في حياتي وقع في غفلة مني ورغم ذلك لم أذعن لمصيدة الندم التي تحاصرنا بها الذكريات فعببت الخمر عبا.
ثم غادرت الخمارة بعد انتصاف الليل.ما أذكره الآن أنني كنت على حال لن أكون على أحسن منها أبدا.أخذت أمشي على طريقة السكارى.خطوات كثيرة للامام وخطوات أكثر للخلف.خطوات جهة اليمين ثم جهة اليسار,خطوات تنظيم,معتدل مارش وعندما انكفأت على وجهي فكّرت في أن أخطو إلي فوق لكنني عدلت عن الفكرة وصرفت النظر.لاح الميدان فقررت المشي على طريقة الفلاسفة والحكماء.
ثم بلغته..ونتدخل هنا لنقول أن البلوغ جعله يتوقف ويفرمل شأن البشر لدى المفترقات.هل كل ابن آدم مزود برادار يتتبع ذبذبات المصير ليلتقطها ويترجمها

فيتشكل بموجبها السلوك وتتحدد الحركات والسكنات؟ هذه الوقفة مهمة لأن ما فعله السكير الشهير ليلتها أختلف قليلاً عن الذي يفعله كل ليلة.وحتى نكون أكثر دقة نقول أن بلوغه الميدان بعث فيه مشاعر مختلفة عن التي كان يبعثها في كل مرة. ما كانت فرملة المتردد المذعور بل هدنة المتريّث المنصور.هكذا حال المعجزات دائماً.تهيْ الزمان والمكان فلا يظهران بالمظهر المألوف ففي تلك اللحظات لم يكن الميدان هو الميدان لأن هالة من نور بداخلها بنت من الحور لاحت للسكران في الجانب الآخر.و تشبّع الجو بعطر فاغم وهبّ نسيم رقص له الليل الفاحم.وماذا فعل السكران؟ قال أنه فغر فمه وفرك عينيه وبهت وتسمّر في مكانه وتسيّبت ركبتاه وتضعضعت أركانه وطارت سكرته الفريدة وحطّت..قائمة طويلة من ذلك فيها الأوصاف اللائقة برد الفعل الذي يصدر عن ابن آدم عندما تلم به الدواهي وتبرز له من مكامنها السواهي لأن الكون معظمه خاف عن الإنسان بل هو فيه كالرضيع وأجهل وكالتائه في التيه وأضل فوقه السماء وتحته الأرض وهو بينهما مخدوع وجل و إذا ما سنحت فرصة مناسبة أخرى فإننا قد نسترسل في سرد ما بالقائمة من وصف لرد الفعل وقد ندعم ذلك بما جادت به قرائح الحكماء لكن المهم الآن أن الهالة اتسعت وغمر نورها الميدان و انبثقت أشجار، وغردت أطيار, كل ذلك بقدرة الواحد القهار. لاح قصر بديع أخذت تلك الأنثى تجرّ الذيول صوبه وتلتفت وتلّوح له تدعوه أن يقبل وتقول هيت لك.

هاهي الحكاية تنتقل من أرض الأنس إلى أرض الجن وهاهو السكران يتبع التي دعته بهمة لم يعهدها في نفسه من قبل.عبرا ممراً طويلاً تحفه الأزهار.تبعها وتبعها وظلت المسافة بينهما ثابتة حتى بلغت باباً انفتح لوحده وانتظره الباب لينغلق من تلقاء نفسه.كان السكران قد أعطى تقريراً مفصلاً عن ما جاشت به نفسه وهو يتبع الحورية ولا حاجة لنا هاهنا لنحكي ونعيد فخلاصة الأمر هي الذهول وعدم التصديق.ومن يصدق أن ميداناً مخصصاً لرمي القمامة يتحول في اقل من غمضة عين إلي كل تلك الرياض التي وصفها السكير المشهور بإسهاب وإعجاب ضاريين. وإنني لأرى أن إعجابه هو السبب في تضارب أقواله فهو أبداً لم يرو الحكاية نفسها مرتين, لقد كانت لديه ألف حكاية وحكاية عن تلك الأيام التي قضاها بصحبة الخضرة والماء(الخمر)والوجه الحسن.

إلي جانب ذلك يأتي ما يضيفه الناس وما يحذفونه للتندر والتسلية وبقصد الخروج بدروس نافعة ولتدبّر عجائب الدنيا.كل هذا حاصل وأنا بمحاولتي تسجيل بعض فصول هذه الملهاة المأساة أزيد الطين بلة.بربكم أليست ملهاة تبعث على الأسى.كيف لا وهي مأساة يلهو بها الصغار الآن.المأساة والملهاة وجهان لعملة واحدة.هكذا قال الحكماء.والصغار هم أحسن من يفهم.لذا فان الكبار سئموا حكاية السكران فبات لا يجد جمهوراً خيراً منهم.يقتحم عليهم الملعب ويجمعهم ويحكي لهم.كانوا يسألونه أسئلة صعبة لكن كل شيْ كان موجوداً بذاكرته.

تقاعدت جميع تفاصيل حياته في ذاكرته وأفسحت المجال للحكاية.ليس عنده شئ غيرها.كانت هناك تفاصيل يجد لذة طاغية في استعادتها خصوصاً عندما استدارت فبهت وشهق وأخذ يتراجع.هذا السكير مثل جميع الناس في هذه البلاد, يحب مشاهدة الأفلام ويحب لحياته أن تشبه حياة أبطال الأفلام وهو حين يحكي لك كيف استدارت وكيف بهت فأنه يقدم مشهداً يدخل الذاكرة حياً.تباً للذاكرة والتذكر والذكريات.قال الحكماء أن الناس يتوهمون أشياء ويتعلقون بما توهموا وبمرور الأيام تنضم الأوهام إلي قافلة الذكريات وتختلط بها فيتعاطاها المرء كما لو كانت حقائق و لا تفلح قوة في الأرض في إقناعه أنها أوهام وأضغاث أحلام.وكيف هو الطقس وما علاقته بالأضغاث؟

ماذا حدث له عندما استدارت هي وتراجع هو؟ لقد استمرت تتقدم وطفق يتراجع.طارت بروج رأسه ودقّ قلبه كالطبل وكاد يصرخ من شدة الفرح والفزع وعدم التصديق فلم ينتبه إلي بركة السباحة وراءه, ولا لحافتها فهو في شغل وأي شغل فأصطدم بها وسقط بكليته في ماء الورد وتسللت إلي خياشيمه أشذاء الفل والياسمين وعبير الجوافة والتفاح فأخذت تضحك وخطت بالطريقة التي يخطو بها الأشخاص الذين يراهم النائمون في الحلم وجلست على الحافة الرخامية ومدت يدها إليه فسبح وهو الذي لم يسبح من قبل وتعلّق بالكف البضة التي جذبته جذبة تتفتت لها الأكباد وتتقطع نياط القلوب.

لا يدري كيف وجد نفسه في حضنها.أهو حصن أم هو حضن, أم انه الحضن الحصين؟ هل نصف الأبواب التي فتحها الحضن أم نصف الكيفية التي غسل بها الوعثاء والعناء أم نكتفي بالقول أنه حضن الأحضان؟شئنا أم أبينا لا بد من الوصف و الإسهاب علنا نخرج بإفادة ما.لقد تكشّفت حجب و انجلت ظلمات و ألفى السكير الدرويش نفسه في دوامة ضوئية تفتح ألف باب في غمضة عين,خلف كل باب حديقة كالمشكاة,في كل حديقة ألف زهرة تفوح بألف عطر,كل عطر يكفي لمداواة العالم من جروحه إلي الأبد.

ولكن هل إلي الأبد؟؟

بعد فاصل القبلات المدوي جاء دور فاصل عبور الممر المغطى بالمخمل الموكيت السجاد الفارسي التركي البيزنطي المحفوف بالورود.كفه في كفها وسارا.قال انه كان قرداً من السعادة في ظل جمالها المستحيل وما كان يعلم ما الذي سيحل به وما كان يهمه أن يعلم.

سنحاول تقديم مقتطفات ولقطات لا تشفي الغليل هي بانو راما لأحداث الغرفة القرمزية التي ألفى السكير نفسه فيها مع تلك الأنثى.ولكن أحداث الغرف التي يختلي فيها رجال بنساء مما لا يحيط به وصف وليس من الحكمة في شئ تضييع الوقت والجهد في محاولة فاشلة لوصف شأن تتداخل فيه السعادة مع البؤس علي نحو طاحن.

فما العمل ونحن نقتدي و نهتدي بالحكماء والفلاسفة ونحن نبتغي تسجيل تجربة ذلك الرجل بأمانة علنا نخرج منها بدرس نافع أو علنا نتسلى أو علنا نعثر على أنفسنا بتأملنا لتشتته أو علنا نساعده في العثور على ذلك الباب.و هل تظنون أن دعمنا له حباً فيه؟مفهوم ومعلوم أن الإنسان يحب الخير لنفسه وعليه فان العثور على مفتاح الباب الضائع مفتاح سعادة لنا وله سيما أن خلفه مثل تلك الغرفة ومثل تلك الأنثى.لكن الباب يقبع في نهاية القصة فما الذي حشره هاهنا وما الذي يجعلنا نلّوح به ونحن لم نصف بعض الأحداث الجسام التي شهدتها الغرفة القرمزية بعد.

أمضى السكير بالقصر زمناً لم يعرف مقداره متقلّباً في النعيم ووجد من تلك الأنثى ما أنساه ماضيه وحاضره ومستقبله.الماضي والحاضر والمستقبل أكذوبة نبتدعها لنعطي لحياتنا قيمة كما ورد في كتاب الحكمة الكبير ولكن عندما يبلغ الإنسان المراد ويشفي غليل الحاجات الأساسية من أكل وشرب ونكاح وعلى وجه ما فيه من المشقة شئ وبمنأى عن العنت الذي تشتهر به طبيعة حياة البشر في اجتماعهم ببعضهم البعض فان القيمة نفسها تصبح شيء بلا معنى و بلا قيمة وذلك هو حال صاحبنا بالضبط.

و ماذا جرى في الغرفة.

لقد ابتدأ كل شئ وهما متخاصران بالممر المؤدي إليها فماذا حلّ به هناك؟

لقد غلم و قطم و شبق و أنعظ ذكره وأشظ وشظشظ وفسج وعرد وانتشر.وهي قد تفقحّت وضبعت وصرفت وحنت حناءً.فلما فاض بهما تطايرت الثياب فإذا بها تهوى البعال وتلذ الجماع وتحب البضاع فأوغفت لفحلها الذي ضرب ولومست فشبقت وجّمشت فودقت وخولطت فعرقت وافترشت فسخرت فلفعها تليفعاً وكامعها وألتثم فاها فناكها وباكها وجامعها وباضعها وضاجعها وسفحها ونكحها وطرقها وخرقها وفرقها وضربها وبخزها ووخزها ومخرها ولغزها وجشاها وخطاها ومحثها ووحطها ومعطها وهرجها وخلجها وعسدها وعردها وسفدها وسلقها وشقلها وفرعها وفشجها وفتجها ودسرها ودغرها ونزا عليها وبغى وعلاها.

وظلا على ذلك الحال زمناً وهي تئن أنيناً يدك الجبال وهو يلهث لهاث الظامئ الولهان فحظ بها فشاجاً وعط هنّها نكاحاً فشقلها بشاقوله ورغب فرجها بغرموله وحرسها وهي مستلقية وباضعها بضعاً كاشراً أي أنه أفرج رجليها وقعد بينهما فأدخل ذكره ودغر ودسر ورعس ودمس ورغم ودس وهجم وقحم وغلّ وشاج وثاج وزقب ونشب فغمز كينها وأقرّ عينها وزاحم طحالها وألحق قرطها بخلخالها ورفع كراعها وأشال شراعها.

لقد هجمت جواهر الألفاظ لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي على الحكاية لتصف بعض أحداث الغرفة فليس هناك أفضل من جواهر الألفاظ للاحاطة

بأمر كهذا.وتوكيداً للرغبة الصادقة في تحقيق الأمانة العلمية في تصوير أحداث الغرفة بوصفها العمود الفقري لقصتنا بل ل٩٩في المئة من القصص التي يتداولها الناس فان بعض الأسطر أو السطور من ألف ليلة وليلة أبت إلا أن تتدخل لتدعم الموقف.

و لأن تلك الأحداث كانت تقع كل يوم ولكن بأساليب مختلفة فلا بأس من نبش تلك الكتب الدائرية الصفراء.

(قام وقلع ما كان عليه من الثياب وجلس على الفراش وطلب النغاش ووقع الهراش وحط يده على ركبتها فجلست هي في حجره وألقمته شفتها في فمه وصارت هذه الساعة تنسي الإنسان أباه وأمه *-وماضيه وحاضره ومستقبله-* فحضنها وضمها إلي صدره ومص شفتها حتى سال العسل من فمها ووضع يده تحت إبطها الشمال فحنت أعضاؤه وأعضاؤها للوصال ولكزها بين النهدين فراحت يده بين الفخذين وتحزّم بالساقين ومارس العملين ونادى يا أبا اللثامين وحط الدخير وأشعل الفتيل وحرر على بيت الإبرة وأشعل النار فخسف البرج من الأربعة أركان وحصلت النكتة التي لا يسأل عنها إنسان وزعقت الزعقة التي لابد منها وهنا أدرك شهرزاد الصباح ولكننا لن نتركه يدركنا لأن جمال الحكايات في ما تعج به من ليل)

وهل كان بمقدوره التمييز بين الليل والنهار؟وما الذي يهمه من أمر الليل والنهار وعمره سيمضي كما يشتهي في سكر وعربدة وتلفيع ولثم وما يقضي البشر أعمارهم في سبيل تحقيق النذر اليسير منه فلا يحصدون سوى الهشيم.لا سجم ولا رماد بعد اليوم.لا خمارة قميئة يذوق فيها الإنسان الذل والهوان للحصول على تلك القمامة التي أسموها باطلاً خمر وما هي بالخمر.بعد عودته ظل السكير يعقد مؤتمراً يومياً للاءات الألف وهو يحكي حكايته.يبسط لاءاته ملوحاً بيديه,يفترشها مثل بضاعة كاسدة ولا يسلم عابر من شتائمه ولعناته.يشتم ويلعن وفي باله النعيم الذي كان، يتلفت حوله فيكتشف البون الشاسع بين الذي كان والذي هو كائن فيشتعل ويتأجج وتترقرق مدامعه ثم يعول كما تعول النساء في وداع البعول.

ولماذا يفعل ذلك كله؟

أمضى في القصر زمناً لا يعلم مقداره, ربما هو يوم وربما سنة وربما قرن لكنه زمن مفعم بالسعادة والرضا ولأنه كذلك فان قياسه يعد مستحيلاً وهو ضرب من الزمن لا يبدأ المرء في الانتباه لمقداره إلا عقب انقضائه.هذه حكمة واضحة ومعروفة ولا لبس فيها.اللبس كله أن يجد الإنسان نفسه في قارعة الطريق، فقيراً معدماً وحيداً بعد تسنّمه قمة المجد وارتشافه رحيق السعد.

لا بد أنكم قد عرفتم ما حدث للسكير أو على الأقل تكونت لديكم فكرة عن ما آل إليه أمره لكن لا بأس من مواصلة الحكاية فما من حكاية إلا وتحمل من يتتبعها إلي محاولة توقّع نهايتها وهي تحمل بذور النهاية في البداية وأنا أصرّ علي

مواصلتها لأنه ليس لدي ما أفعله ولأن الأمانة تقتضي تسجيل ما يدور في الأزقة الضيقة والحواري بدقة لأنها تقع خارج التاريخ والجغرافيا ولن يقف الأمر بي لدى إكمالها وترك المتلقي يستخلص منها دروساً وعبراً وفق مزاجه السقيم بل سأقوم بالمهمة و سأسلمكم الدروس و العبر التي تحملها حكايتنا بين ثناياها كما يفعل أي شخص نزيه يحب أن يتقن عمله.

الأنثى الجهنمية في كل يوم تستخرج من صاحبنا طاقات كامنة ما كان يخال أن كيانه ينطوي عليها.بدا وكأن الواحد منهما يعرف الآخر منذ زمن بعيد.لم يتبادلا كلاماً يذكر لأنشغالهما بتبادل القبلات, ثم ما جدوى الكلمات والأجساد فصيحة وصحيحة ومحلّقة إلي سماوات لا تطال وغائصة في أعماق لا تدرك.

ابتدأت- المأساة- مأساة السكير بالكلام.عندما أجلسته على حجرها وقالت له أن لديها كلاماً هاماً تريد أن تقوله له فرح وظن نفسه على أعتاب فتح جديد لكنه جاهل أحمق لا يعلم أن الكلمات عندما تشرع في الاجتماع والتراص لا تفعل ذلك اعتباطاً بل هي تفعله مع سبق الإصرار والترصد لصنع متاهة يضيع فيها الإنسان وقد دشّن الكلام لحظة الانحدار والإحباط الدرامي(anticlimax).

أعادته الكلمات إلي مستنقع التفاهة والخمارة الخربة وميدان القمامة الغبي.

وكيف؟

اسند رأسه إلي صدرها وأخذت تمسح بكفها على شعره.قالت أنها ستغيب عنه مدة وجيزة فاعتدل في جلسته وتراجع لينظر في عينيها مباشرة.إبعاده لرأسه عن صدرها ضرورة درامية ميلودرامية وهي لقطة نحاول بها بلوغ درجة من درجات الكمال المستحيل.طلبت منه أن لا يقلق وقبّلته وقالت أنها أعدت له برنامجاً حافلاً سيسليه في غيابها.صمتت قليلاً ثم قالت قم معي.قادته إلي ممر طويل مسدود تقوم على جانبيه ستة أبواب ذهبية(ثلاثة على اليمين ومثلها على اليسار) مقابضها فضية والممر ينتهي بباب سابع من المرمر والذهب والياقوت وكل الأحجار اللئيمة.أخبرته أن بامكانه الدخول إلي تلك الغرف والتمتع بالنعم التي فيها قالت له أن كل تلك الغرف تحت أمره إلا التي في آخر الممر قالت:اياك وتلك الغرفة يا نور عيني.ثم جرّته عائدة به إلي المخدع الذي سيشهد اللقاء الأخير.

يبدو أن الحكاية قد انتهت.قضى أوقاتاً ممتعة خلف الأبواب الستة، شاهد غرائب وعجائب هناك.ثمّ بقى الباب السابع.تجنّبه لكنه لم يفلح في تجنب التفكير به.وأخذ صوت يهمس في أذنه:أن عليك بذاك الباب.لا تصدق ما قالته.ستجدها بشحمها ولحمها في انتظارك وستقول لك أنها كانت تعلّمك الشوق.حاول مقاومة الصوت لكن وقع عبارة شحمها و لحمها كان من القوة بحيث دفعه دفعاً إلي الاقتحام. (لم يأبه كثيراً بمسألة تعلّم الشوق تلك).

لأول مرة منذ دخوله القصر يجد نفسه في قلب ظلام كهذا الظلام.الروائح العطنة التي تسللت إلي حواسه مألوفة والصمت الكئيب المسدل على المكان ليس

بالغريب.ولكن أيعقل هذا؟؟الميدان القديم؟ ظل ساكناً ومصعوقاً لبرهة من الزمن ثم استدار ليعود من حيث أتى وليطرد الكابوس.مشى ومشى حتى وجد نفسه قبالة باب الصفيح الذي تخبئ مستورة خلفه القدور السوداء لطبخ العرقي والمريسة.صرخ صرخة عظيمة وخرّ مغشياً عليه.
اندفع الزبائن مذعورين فإذا بصديقهم القديم ممداً على الأرض كجذع نخلة خاو.للحظة ظل كل واحد جامداً(كاللوح)وساكناً(كالحجر) ثم تكالب جمع السكارى الذاهلين وحملوه إلي الداخل، تحسسوا نبضه وتنصتوا لنبضات قلبه فألفوها كما في صدورهم فأمر أحدهم بالبصلة التي وضعت تحت أنفه فأفاق.
فتح عينيه فتبين وجوههم وتعرّف على المكان.مرة ثانية جمود الصخر مع الذهول.تحرك لينهض فعجز.مكث هكذا زمناً(ساهياً مذهولاً مأخوذاً ضائعاً)ثم فجأة وبلا سابق إنذار نهض قائماً وشرع في تشتيت الشتائم فشتم الجميع وسبّ الدين وقال أنه فعل وترك بأمهاتهم وأمهات كتب التراث والحداثة وانطلق خارجاً كالسهم.
أمضى الليل كله وهو يركض كالمجنون. شرّق وغرّب وتمنى لو أن أجنحة تنبت له ليحلّق عالياً. ركض ركضاً فما وقع للقصر على أثر.أين ذهب بحق السماء وما معنى هذا ولماذا تفعل ذلك به؟ بالله عليك كفي مزاحاً.
ومن قال لك إنها تمزح يا مخدوع يا مسكين؟
هكذا تجري الأمور على ظهر هذه الفانية فلا تفني عمرك ركضاً خلف السراب.
لكنه لم يجد من يهمس في أذنه بمثل هذه الكلمات وكان من المستحيل أن يصدّق أن الأمر كله سراب يليه سراب، أي سراب في سراب بينما عطرها ما زال يرفرف في الفضاء.لكن يا صديقنا السكران الحيران ألا تعلم أن العطور ضرب من السراب؟
قد يسأل سائل, ما جدوى الركض؟
ما فائدة اللطم على الخدود؟
هناك إجابات وما من جواب.
إن الإنسان قد خلق هلوعاً, اذا مسه الخير كان منوعاً و إن مسه الشر كان جزوعا ومن أمضى فترة لا بأس بها في وادي التفاح يصبح لديه ألف سبب وسبب للركض وتشتيت اللعنات حين يقتحم البصل حواسه.
هناك أمور واضحة لكن لا بد من توضيحها أكثر قبل التوغل في أحراش الدروس والعبر التي تمدنا الحكايات بها.من تلك الأمور مثلاً ما الذي مثله غيابه لبعض الوقت لبعض الناس. مستورة وبعض زبائنها الدائمين ومستأجرو النصف الآخر من الدار هم الشهود العدول على ذلك الغياب وقد أثار ذلك الاختفاء المفاجيء اهتمامهم وفضولهم. مستورة لدين تنتظر تسديده, والمستأجرون بحكم الجيرة والإيجار والزبائن بسبب رفقة الكأس جميعهم اهتموا لبعض الوقت, لكن اهتمامهم

بالأمر أخذ يضعف وكاد يتلاشى حتى جاء ظهوره المباغت في تلك الليلة ليعيد الاهتمام ويوقظ الأسئلة.
لقد دخل وأغمي عليه فلما صحا ركض و طفق يتخبط كالمجنون.لم يلحق به أحد وتركوه لأن من عادات السكارى الانقياد لمثل تلك النوبات ومن عادة الزملاء تركهم وشأنهم ما لم يمثلوا خطراً حقيقياً على المجتمع وأمن الدولة.
والشهادة لله أن السكير الشهير أصبح شخصاً مختلفاً منذ عودته من رحلته الغامضة و تلاحظ بعد تلك الليلة أنه لم يعد يتردد على الخمارة وأنه لا يغادر الدار إلا بعد غروب الشمس وأنه يتجه إلي الميدان ويظل في لف ودوران حول الموقع الذي ترمى فيه القمامة وأنه بعد أن ينال منه التعب يجلس القرفصاء, جلسة من ينتظر شخصاً عزيزاً شأن الأعراب والفقراء والمساكين في محطات الباصات والقطارات.
أصبح نحيلاً ورقيقاً وساهياً كالعشاق وأستمر الحال على هذا المنوال زمناً. ثم رويداً رويدا ابتدأت مرحلة البوح بالسر. لم يأت البوح مباشراً ومتعمداً بل عن طريق المصادفة عندما جاء أحد رفاق الخمارة وشاركه الجلوس فثرثرا وتشاجنا وفضفض كل واحد عن ما بنفسه. الثابت أن السكير الشهير لم يكن هو المبادر بافتتاح السرد فقد أفضى للسكير الآخر الذي شاركه جلسته بنتف من ذكرياته في القصر فقام هذا بنشرها بين الناس في حارة يكاد يقتلها القنوط, حارة غطاها الصدأ لكثرة ما عاشت في كنف الرطوبة والعطونة والعتمة, حارة بلا أبطال يستعين فيها الناس على قتل الزمن والهم والغم بسرد الحكايات ونسجها وتداولها وتعديلها ومطها كل حسب هواه وتوجهاته وأحسب أن السكير لم يرو حكاياته بل سمع الناس يتناقلونها فصدقها وصادفت لديه قبولاً فاستحسنها ووجد فيها ضالته.
لا مفر من الحكايات في هذه البلاد التي يضل فيها العقل والفؤاد من شدة الفقر والظلم اللذين لا تدري من أين يهبطا ولا كيف يمسكا برقاب العباد. مالنا ورقاب العباد وهي بخير سيما حين يمدونها في وضعية القصد منها الحصول على فرصة استماع جيدة لخطرفات السكير العجوز وهرطقاته التي لا تنتهي بشأن الجنية التي صادته وأغرقته في النعيم ثم لفظته بلا سبب واضح. وهل قلت العجوز؟!
نعم العجوز لأن هذه الحكاية ستستغرق زمناً طويلاً يتسلل خلاله الشيب إلي رؤوسنا نحن الشبان المتسكعين وينحني ظهره هو ويقضي كثير من أبناء جيله رفاق الشرب نحبهم وتأتي حكومة تغلق الخمارات والمواخير, يحدث ذلك كله وهو ثابت على مبدأه لا يتزحزح قيد أنملة. الحكاية ذاتها.يحكيها يوم الجمعة في السوق من طقطق للسلام عليكم.وقيل أنه مرة أقتحم المسجد وأعتلى المنبر وقبل الدخول في الموضوع تدارك بعض العقلاء الموقف فأنزلوه.إذا وجد قوماً يجتمعون قبالة دكان أو لدى ناصية زقاق كما هو الحال في الأحياء الفقيرة والمهمّشة يجلس بينهم فيحكي ويحكي فيضحكهم ويحملهم على مماحكته ويطلبون منه تكرار

الأجزاء التي تخص شئون الفراش ويسألونه عن كفلها و ردفيها ونهديها وهل أتاها من الخلف وكم دوراً في اليوم والساعة و الدقيقة كان يعمل الخ فلا يبخل عليهم بالوصف الدقيق الذي تقطعه تنهيدات تفيد الندم وقرع السن والشوق والحنين والتعجب من الدهر و صروفه.
ولنا أن نعجب من الدهر وصروفه. ولكن ما المغزى من هذا كله؟ أنا المتسكع الضائع أطرح هذا السؤال على نفسي دائماً وأفر إلي الفلاسفة والحكماء فأجدهم سكارى من شدة الحكمة والفلسفة, أجدهم منشغلين بقضايا مهمة, قضايا كبرى ومصيرية فأسعى للعثور على الجواب وحيداً.هذه متاهة كبيرة وحالكة وسراجي مطفأ لكن ذلك لن يمنعني من المحاولة.(غضوا معي الطرف عن سؤال من أطفأ السراج الذي قفز إلي السطور بدون دعوة مني ودعونا نستعرض بعض المحاولات التي ستقعون عليها مرقمة بطريقة تدل علي سعي بائس للتجديد.)

المحاولات والمناولات غير المنوالية:

١) لو أن ما حكي قد حدث فعلاً فان عصر المعجزات والعظات والدروس والعبر لم يول الأدبار بعد, وهذا السكران الغبي تم اختياره ليدخل هذه التجربة ويخرج منها بشيْ نافع ومفيد, صالح سيسجله التاريخ لو أنه صبر وكتم السر وتفرغ للتأمل والتدبر شأن الحكماء والفلاسفة لكنه سكران مغفل متعجل, وعلى كل حال علينا أن ننتظر لننال نصيبنا من المعجزات وعلينا أن نتجنب الخطأ الذي وقع هو فيه.

٧) لو كان الأمر حكاية ملفقة وخطرفات سكارى فان هذا هو المطلوب بالضبط.

٨) وكيف؟

٢٥٢٢٤١٦٠) ماذا كنا نقول؟ كل نفس بما كسبت رهينة؟ كل واحد لديه أماني وآمال والحياة في كثير من الأحيان تفرض علينا عكس ما ننسجه في خيالاتنا و أوهامنا من آمال وأمنيات فلماذا لا ننسج أمانينا و أحلامنا و أوهامنا وتطلعاتنا في شكل حكايات ونسير بها بين الناس و نصرّ على روايتها ونلح على أنها وقعت فعلاً و أن هناك شيْ قد ضاع منا لذلك فإننا نصرّ على الحكي علّ الحكاية تعيده إلينا أو عل من نحكي لهم يساعدوننا في العثور عليه و هذا يعطي الحياة طعم ومعنى و لكننا كي نكون كذلك نحتاج إلي السكر والعربدة و كل واحد منهما ليس بالأمر الهين، السكر ليس مجانياً والعربدة لا تكون تحت الطلب فهي تحتاج إلي مزاج رائق دائماً وموهبة استثنائية في اللامبالاة.

صفر

صفر: وتعني الإحداثي الصادي

نحن نبتلع الطعم بسهولة وهذا هو السبب الأساس للحكايات.

ثالثاً و أولاً: التسكع و السكر والعربدة و الهرطقة مسائل يتضايق الناس منها و ويضعونها في عداد الرذائل, لكنها لا تقل حيوية وجدية عن الزواج وطلب الجاه والسلطة بل أن مردودها أعظم من الأخيرات لكن الجهل و طلب السلامة يصل بالناس لدرجة التعامل مع تلك الشئون بخفة زائدة و لا يقفون عندها حتى عندما تستوقفهم وعليّ التوسع في شرح هذه النقطة في (zero)

Zero: أن نقول أن التسكع و السكر و العربدة الخ لا تستوقف الناس فإننا نقصد أنها تستوقفهم في الطرقات فقط لكنهم حالما يصلون بيوتهم فأنهم ينسون كل شئ عن السكارى والمتسكعين والحيارى فكأنهم غير موجودين وهذا الخطأ يقع فيه الناس عن جهل و لأنهم أبعد ما يكون عن الفلسفة والحكمة و لأنهم لا يعلمون أن للسكارى و المتسكعين قضايا جادة و تستحق التأمل و التدبر.
كل ما تناقله الناس عن السكير و حكايته تم في الطرقات، لم يحدث أن جلس رب أسرة وسط أهله و حكى الحكاية، الأمر يخص قارعة الطريق و الأسر لديها ما يشغلها من مسلسل و غسيل و غداء و مرتَّب لا يكفي حتى الرب الذي يستلمه شهرياً ونفاس و ملاريا و ملابس مدرسة الخ الخ فلا مكان للسكران في فضاءها, لا مكان لتلك الحكاية التي ولدت في مقلب القمامة الكبير.

أخيراً و ليس آخراً:

هذا الافتراض أخرّناه و أجلناه لانطوائه على تجديف و مروق وشق لعصا الطاعة على طريقة اليائسين و المعدمين ومن لا ورق لديهم ليلعبوا به فلا يجدوا ما يقامروا به سوى تحدي ما لا يرى و ما لا يحاط به. وهذا الافتراض نبهنا له مثل شعبي لا بأس من أن نورده مع قصته.
هل نحكي القصة أولاً أم نورد المثل. لا بأس من سرد الحكاية أولاً فهي من حملت المثل وهناً على وهن و هي عن بقاري ضاق به الحال فأخذ يشكو ويتذمّر و أشتط في ذلك فعمل أولاد الحلال على تهدئة ثائرته بالكلام الطيب و وصفوا له الصبر علاجاً للكرب و قالوا له أنه مفتاح الفرج (هذا مثل آخر و له قصة لكن لا داعي

لورودها هنا) لكن الأحوال أخذت تزداد سوءا و العبارات نفسها تتكرر كل يوم, الفرج, الصبر, غداً تفرج فلما طفح الكيل خاطب مهدّئيه من على ظهر الحمار قال:إن فرجت فبها و إلا سأبيع حماري هذا و أفرجها على نفسي و ربت عليه حتى يعطي المشهد بعده الدرامي المطلوب.
المثل: فرجها علي نفسك إن استعصت على الانفراج.
قد تسألون ما دخل هذا كله بحكاية السكران والجنية؟ العلاقة واضحة ولا تحتاج إلى توضيح ومع ذلك سنوضحها حتى لا يقال أننا تركنا أمراً للصدفة و الظروف.المسألة تتعلق بالممكن والمستحيل فعندما تستحيل عليك الممكنات يهون عليك المستحيل فتتوطد علاقتك به عن طريق الخيال و الشطحات وبلا وساطة.بكلمات أخرى,عندما يكون الحصول على اللقمة عسيراً و الفراش خشناً و الجو حار دائماً و تحاول أنت تعديل الأوضاع نحو الأفضل في حدود إمكانياتك فتفشل و تفشل فان ملاذك الأخير هو الحلم،لا تحلم ببيت بل بقصر يضل فيه السالكين,لا تحلم بحشية وثيرة فحسب بل عليك تصور مخدع ملكي تتمرغ عليه أنثى أوثر من كل فراش,أحلم وأضرب بكل شيْ عرض الحائط ومدّ لسانك للفرج الذي سوف لن يأتي أبداً.
لا يكفي هذا.أحك للناس ما حلمته و استغل فترة غيابك التي لا تدري أنت نفسك أين كانت و كيف كانت,قل للجميع أن تلك الوقائع قد حدثت حينها.
و أكاد أجزم الآن أن إصرار السكران على تلك الحكاية قد شرع يأتي أكله و أن الجميع يبحثون عن الجنية لكنهم جبناء يرغبون في سرقة اختراعه مع الاحتفاظ لأنفسهم بهيئة الأشخاص المحترمين الذين يفرض الواجب عليهم إظهار الضيق من سكير بات معتوهاً.ولكنهم ليسوا بمثل شجاعته فهم يتسللون لواذاً لواذا إلي مقلب القمامة الكبير ويحومون حوله متظاهرين بالعبور المصادف ويفعلون ذلك بقلوب واجفة علّ الطيف يلوح وعلّ أضواء القصر تحيل الليل نهاراً.
جميعهم يفعل ذلك بعد أن ترك السكير حراستها و صار يقضي جلّ وقته في البحث عن مستمعين.
لم تنته الحكاية لكن يستحسن ومن الأفضل بل من الأوفق التوقف هنا.

حكاية مجموعة من الشبان

هنا حكاية مجموعة من الشبان ينتمون إلي حواري تشبه حارة السكير وحارة إسماعيل و القطة و أحب التذكير بان الحارات مرتع خصب للحكايات لأنها معقل السواد الأعظم من البشر البسطاء المعقدين وهذا السواد إنما يزداد سواداً لأن أحلامه مؤودة و هي طال الزمن أم قصر تستحيل رمادا.

هؤلاء الشبان, ولا داعي لذكر الأسماء عاطلين عن العمل كما هو متوقع. و برأيّ أن سرد حكايات العاطلين أحسن و أصدق للقراء من حكايات العاملين لأنها تمنحك فرصة ذهبية للتسكع معهم وتضع بين يديك مفاجآت طازجة يخلو منها ذلك الروتين الممل الذي يقبض على خناق ذلك المسمى بالعمل.

و مع أنه لا لزوم لسوق المبررات فسوقها هنا قد يبدو مبرراً و هو أيضاً و جائز أنه غير مبرر.

خذوا هذه أيضاً:

لا بد من ذكر الأسماء.

صالح وفتحي و تاج السر و بلّة الخ. فقد ظننت(عن جهل)أن عدم ذكر الأسماء قد يضفي على الحكاية سحراً ثم اكتشفت فجأة(لا أدري هل عن علم أم عن جهل هذه المرة)أن ذكرها ضرورة فنية فقد يصبح واحد من أصحابنا شخصية عابرة للزمان والمكان مثل هاملت أو أحدب نوتردام أو مصطفى سعيد أو الرجل الذي أحب لوليتا وخرج إلي الدنيا بعقدة نرجو أن يحلها ألف حلال فأن لم يكن فلا بأس من أن يوصف أحدهم أو جميعهم بأنهم شخصيات نمطية في دراسة نقدية.ثم أن الأمر هنا ليس كتابة فقط.أنه قلة حيا و قنوط وجرسة و هلوسة و احتجاج و شق لعصا الطاعة و فنجطة في البراح تسعى للهروب من كل قيد وتعلّم العيش مع القيد و كأنك بلا قيد و هو مدّ لسان و قلة إحسان و باختصار هو تجسيد حي للمثل القائل:(الخشم بليلة والحيلة قليلة) و هذا المثل لن يفسده تعديله إلى:(القلم بليلة و الحيلة قليلة).

والآن هل اشرحه لكم أم أحكي قصته أم الاثنين معاً؟ لا هذا و لا ذاك فالرجاء البحث في المعاجم و القواميس و خشم البقرة حتى لا تنضموا لقطيع القراء الذين ينتظرون من الكاتب أن يفسّر الأشياء و يقدمها على طبق من ذهب,و يجب أن تعرفوا أن خطابنا لا يتوجه إلي قارئٍ ولد وفي فيه ملعقة من ذهب بل إلي قارئٍ و أيضاً إلي كاتب ولد مخنوقاً مكظوماً مغيظاً مهملا.

دعونا ننتهي من مسألة الأسماء هذه ولنقف منها موقفاً حاسماً.هل نذكرها أم لا؟ سنذكرها ولكن بدون ضابط ولا رابط و أعدكم بأن هذا الأمر لن يكون مزعجاً و حتى إذا وجدتموه كذلك فان واحد من شروط الكتابة الثائرة المتحررة من كل قيد والخارجة عن المألوف يكون قد تحقق فالحكمة تقتضي أن نذكرها كيفما اتفق و أن نخلط الأوراق فلا نعود نعي ما الذي يدور و ما الذي نقول ونكتب, تطبيقاً

لتعاليم جاء بها حكماء لا يشق لهم غبار.و لنترك مسألة الأسماء جانباً و لنبدأ الحكاية.
ما الذي يجمع هؤلاء الشبان؟
العطالة والبحث عن حفلات.
و كيف ذلك؟
هكذا:الواحد منهم يقضي سحابة نهاره في التسكع و الجلوس تحت مظلة في محطة أو في ظل شجرة فإذا ما أقبل الليل, انطلق راشداً إلي سرادق منصوبة كان قد حدد موقعها أثناء تسكعه النهاري و في صخب حفل العرس أو الطهور أو السماية ذلك يحاول منح بعض المعنى لحياته.ولماذا تقول العرب سحابة نهاره؟ولماذا يبدو الشاب عصام أو الشاب حامد أو الشاب الناجي زائغ النظر,نصف مجنون تحت الأضواء الكاشفة و في قلب ذلك الصخب العارم؟ ولماذا نصف مجنون؟ لماذا لا يكتمل جنونه الآن أو غداً فيطربق الدنيا على رؤوسنا لنرتاح من الهم والغم ومن التجول في غابة المرايا المحطمة.
نلفت انتباهكم إلي ضرورة إجراء بعض التصويبات قبل المضي قدماً.قلنا في موضع سابق أنه ينطلق راشداً و لم نقل أنه ينطلق ضالاً مع كونه عاطلاً و مع أن التسكع و الانتظار أليق بالضلال و أقرب إليه من الرشد.ألا ترون معي أن من الأحسن القول بأن الشاب ينطلق و كفى؟ و الآن لننطلق قدماً إلي الوراء لأن كل ما نسرده و نحكيه وقع و انتهى.
لكن رص الكلمات و رصفها و سفلتتها يعني التقدم إلي أمام فالكلمة تكتب و أختها تأتي بعدها فكيف لا تزل القدم و يتعب القلم و يصاب الحبر بلوثة عقلية من شدة الندم و الألم و يتمرد الكلم في هذا التأرجح قدماً والي الوراء؟
و الانطلاق في العامية السودانية يعني قلة الأدب و انعدام الحياء فالبنت المطلوقة أقرب إلي العاهر إن لم تكنها و الشاب المطلوق يعني المستغرق في السفه والصياعة ولأن الأمر كذلك فأنني أرجو أن يتسع صدركم لي لنتدارس هذه المسائل معاً.
ولكن الندم كامن في النفوس لأن الفجوة بين الحلم والواقع أكبر من أن تردم بتلك الطريقة التي حاول أصحابنا ردمها بها و لا بد أنكم في شوق لتعرفوا كيف حاولوا.
لماذا لم يؤجروا عمالاً ليردموها لهم و يستريحوا؟ و من أين لهم بالمال؟ هذا هو السؤال..المسألة تحتاج إلي شركة مقاولات، و بدلاً من شركة مقاولات قاموا هم بإنشاء شركة ل(الضهب).
الضهب قتل أبا لهب.وما الضهب؟
هو احتراف التطفل و محاولة الحصول على أكبر قدر ممكن (أو حتى غير ممكن) من البهجة (ملح) أي بأقل مجهود ممكن أو غير ممكن و الأفضل الحصول عليها

بغير جهد.(هذا ما يظنه الآخرون) و لكن و للحقيقة فان ما يبذلونه من جهد أكبر من ذلك الذي يبذله أصحاب الملايين فالواحد منهم يعتمد على صحته و عافيته و يتكل بعد الله على شبابه الضائع لتحديد موقع الحفل و المهمة ليست سهلة كما قد يتبادر للأذهان أول الأمر و هي التي أودت بهم كما سنرى في محاولتنا لحل عقدة الحكاية لاحقاً أو سابقاً أو في الما بين.

و هل أودى بهم حقاً أم أن وراء الحكاية حكاية؟ العلم عند ربي لكن لا يجب أن نقف مكتوفي الأيدي, بل علينا أن نضع الحكاية بين أيديكم فلا تقفوا مكتوفي الأيدي أيضاً حتى نلتقط بعض ملامح الحكاية الأخرى التي وراءها و ربما قبالتها و تحتها و فوقها.

ماذا يفعل أولئك الشبان في الحفلات؟أن بيت القصيد هو الوجه المتوهج في وعي كل واحد منا و الحكاية دائماً ما تبتدئ بوجه متوهج في الذاكرة(يمكن أن يعد وهجاً متوجهاً) أيضاً وجه كما تريده الذاكرة حلو و خال من العيوب و ثغره مفتر عن ابتسامة كالبلسم و الحكاية في هذا الطور رومانسية بحتة غير مبحوحة الصوت عذبته و رخيمته و عندما يبدأ الوجه في تكوين البقية الباقية من أثداء و أرداف و نحر تنحرف الحكاية جهة التراجيكوميد و ترحل أغنية هواك وهواي بي جاروا و تتوارى لتحل محلها أغنية البنسلين يا تمرجي و يبح الرخيم لأن الوجه يخرج من برج العذراء متجهاً إلي برج الحمل بخطوات حثيثة و أرداف مرتجة.

بعد هذا الكلام الاعتراضي يتضح أن ذاكرة كل واحد من الشبان تخبئ وجهاً شديد التوهج يأتي الشاب لينقّب عنه في زحام الحفل و صخبه. و هل يقع عليه؟وهل يقع على وجهه؟هنا لا بد من العودة إلي الفلاسفة و الحكماء لنستأنس بما قالوه.

قال أحدهم:أحب السفر و لكنني لا أحب الوصول.

و قال آخر:أن لدى كل واحد منا مفقود أصلي، يرسخ لدينا شعوراً حاداً بالنقص و بأننا لا نكتمل إلا به, و رحلة حياة كل إنسان هي بحث دءوب عن هذا المفقود. لقد قالوا الكثير بشأن المعضلة و لم يحلوها و أصحابنا الشبان يحاولون حلها فتزل أقدامهم و يتخبطون في العماء و يضيعون, فلا يسمع لهم حس و لا خبر و يصبحون نسياً منسياً.

و كيف ضاعوا؟

أضاعتهن الفتيات.. أولئك اللائي يقضين وقتاً باهظاً في صنفرة وجوههن و دعك أجسادهن بالصوابين و البودرة والكريمات و أضاعهم أنهم أضاعوا الطريق الصحيح الذي يتزاحم فيه الناس ويتدافعون بالمناكب لنيل ما يجب نيله من هذه الحياة لأنهم فقراء أبناء فقراء و يضربون الهم بالبسكويت و يتطفلون على حفلات الأعراس لأن صخبها و بهرجها و زقزقة الألوان فيها تشكل تربة صالحة لزرع الأحلام الوردية و البنفسجية و القرمزية و رغم أن حضورهم تلك الحفلات

أحط مكانة من حضور الكومبارس في الأفلام الفاشلة إلا أنهم يتمسكون به و لا يبدلونه بغيره بتاتاً.
أحدهم جن و أصحابه اختفوا و لم يقع لهم أحد على أثر و تضاربت الأقوال بشأنهم و صاروا نسياً منسيا. لكن الأمهات يقعين في الحيشان المقفرة ساعة الغروب و يذرفن الدمع في صمت. ما العمل؟ هذه دموع تدك الجبال و هاتيك زفرات تذيب الحجر.
كيف جنّ الفتى الوسيم الذي لم يفلح الفقر المدقع في طمس آيات الوسامة التي بوجهه و كيف طوى الغياب أصحابه أعضاء شلة الضهب الشهيرة؟ هذا ما سنحاول تقصيه هنا و عملنا لا يمثل سوى اجتهاد قد يخطي و قد يصيب و نأمل في أجر المحاولة.

وجهان متوهجان في الصخب كانا يرسلان تحيات قلبية(ربما هي صادقة, و ربما هي كاذبة و ربما تحمل من كلا الاثنين طرفاً و هي بذلك صابكة) و قبلات مشفرة صوب صاحبنا الوسيم الذي نبهه أصحابه أن الصنارة غمزت و دفعوه بحسد ليدنو من البنتين و يتسمع حديثيهما. من هنا ابتدأ كل شئ. تصاعد الإيقاع فيما البنت السمراء المتوهجة تتابع الولد القمحي الوسيم بقعر عينها و هو يشق طريقه في زحمة الراقصين ليدنو منهما, منها هي تحديداً لأن نظرتها المرسلة و المسترسلة كانت مغناطيسية و متوافقة مع المعدن الذي جبلت منه ميوله العاطفية.

لا بد من فقرة تفسيرية ثم العودة إلي ذلك الانجذاب.
الشبان الذين تدور الحكاية حولهم (انظروا: إنها تدور حولهم و تحوم كما يحوم الصياد حول الفريسة و يتربص بها الدوائر لاقتناص اللحظة المناسبة للانقضاض, لكن الحكايات لا تحصل على لحظتها المناسبة أبداً فهي إما أن تتأخر أو تتعجل فتفر الفريسة و تتفرغ الحكاية لوصفها من باب التعويض و الإعداد لحملة صيد قادمة) طبقات و يمكن تأليف سفر تاريخي أنثر بولوجي عن طبقاتهم تلك لكن ما يهمنا هنا الطبقة التي ينتمي إليها أصحابنا و صاحبهم.
و لأن الشئ (في الأنثربولوجيا و التاريخ و غيرهما) يعرف بضده فإننا سنورد وصفاً للجماعة التي تقف على الطرف النقيض من طبقة أصحابنا و تستند على مبادئ يحتقرونها.
حفلات الأعراس كما المآتم في ذلك الجزء من العالم تقام على قارعة الطريق كما أسلفنا فيغشاها كل من هب ودب كما أسلفنا أيضاً لكن ما لم نسلفه أن ضعاف النفوس (و هم هنا الفئة الباغية و المناوئة للتي يمثلها أصحابنا) يستغلون الهيصة و الهياط و المياط لتحقيق مآرب خبيثة و رخيصة و خسيسة و دنيئة و هم بصراحة يستغلون عجيج حلبة الرقص و ضجيجها و زحمتها للاحتكاك بأرداف

الفتيات التي تزداد نضجاً في الحفلات و الاصطدام بنهودهن بموجب مصادفات مدبّرة و هذه الإجراءات معروفة و منتشرة بكثرة في تلك الجهات يلجأ إليها الشبان بل و الشيوخ عندما تشيلهم العرمة و يفيض بهم الشوق و الحنين و أنسب الأماكن لتطبيقها إلي جانب حفلات العرس و الرقص على قارعة الطريق البصات و الأسواق و بخاصة في الأيام التي تسبق عيديّ الفطر والأضحى. أصحاب النفوس الأكثر ضعفاً (أم هم أصحاب النفوس الأشد قوة بسبب الجرأة على الحق و الباطل معاً) يكوّنون عصابات و يوزعون المهام حيث يقوم أحدهم بنزع الفيش موصل الكهرباء إلي ساحة العرس فيهجم زملاؤه على ما تيسر هجمة شرسة و يلحق هو بهم حتى لا تفوته الغنيمة و قد ينتهي الأمر بكارثة و قد يأتي الظلام برداً وسلاما على أصحاب النفوس الضعيفة التي ربما هي قوية.

و لحقيقة و التاريخ فان هذه الفئة و ممارساتها تنحسر يوماً بعد آخر و هي في حكم المتلاشي نتيجة للتطور التقني و الاستعانة بفرق حراسة و لأسباب سيسيولوجية و بارا سيكولوجية أخرى.

أما طبقة أصحابنا فأهلها أشبه بالشعراء.

و كيف ذلك؟

صبراً حتى أخبركم كيف هو ذلك: أكبر وجه شبه بينهم و بين الشعراء (المقصود هنا الشعراء كما يراهم العوام من الناس لا الفلاسفة و الحكماء) هو الطيران بلا أجنحة. و لكن هل هناك فرق بين الشعراء عندما تختلف العين التي تنظر لهم ؟ دعونا من الحماقات و لنواصل حديثنا عن الجماعة. أجسادهم تكون بساحة العرس و خيالاتهم تحلق مع السحاب. ذلك يظهر من المواقع التي يتخذونها لأنفسهم إذ أنها مواقع تسمح لهم بمراقبة البنات في غفلة منهن(لا أحد يستطيع إنكار أن ذلك بعض ما يقوم به الشعراء عندما يتأملون العالم في غفلة منه لالتقاط الصور الشعرية) و يبذلون جهداً مقدّراً (لكن لا أحد يقدّره) في سبيل الحصول على شريكة تسبح بين السحب. و من موقعه يشرع أحدهم في نسج قصة حب مطرزة بالدانتيلا و مطهمة بالذهب. (و هل الذهب مما يطهم به و ما هو التطهيم؟).

ابتدأت قصة الحب القتيلة تلك بهمسة انتظرت الفتاة السمراء دنوه حتى تهمس بها بحيث يبدو و كأنها تتوجه بالهمس لصاحبتها و أنها لم تقصد أن تسمعه إياها رغم أنها كانت تقصده مع سبق الإصرار و الترصد (البنت كانت تعرف الولد- فقد تصادف مروره أكثر من مرة مع شلة الضهب بشارع المدارس – و كانت تتحين فرصة مناسبة لافتعال مناسبة للحديث معه). هذا أسلوب ابتدعه حكيم عاش في الزمن القديم و هو أسلوب اتخاذ الآخر قنطرة لتوصيل أمر ما إلي آخر عبر آخر

وسيط تلقي به الظروف بين الطرفين. و قد احتوت الحكاية على آخر آخر غير الآخرين المقصودين.
ما الذي حدث بالضبط عندما دنا الشاب من الفتاتين و كانتا ترقصان فقالت السمراء لصاحبتها: انظري انه يشبه عمار الزبير؟ ومن هو عمار الزبير؟ أنه مطرب الشباب في تلك الجهات من الأرض و الاسم الذي تهمس به الفتيات المصنفرات كما لو كان تعويذة وكلمة سر و هو الآخر الذي أضاع صاحبنا.
تغير مسار حياة فيصل اثر تلك الهمسة فعمل على التماهي مع ذلك الآخر تماهياً مؤذياً لغياب النضج الانفعالي لديه و لأنه اعتقد أن الفرصة المواتية قد لاحت أخيراً فهو بشخصية عمار الزبير سيختصر كثير من الوقت والجهد الذي يصعب عليه تجنبه بشخصية فيصل العادي(قد يسأل أحدكم ما الذي حشر النضج الانفعالي هنا و أقول لكم إن لبعض العبارات الق يعطيها الحق في حشر نفسها فجأة لأنها تدفع للتفكير في المسألة والنظر إليها من زوايا مختلفة و قد حشرناها و السلام و إن لم يعجبكم ذلك ففي ستين) المهم أن الولد و منذ تلك اللحظة شرع في تقمص شخصية عمار و التطابق معها حتى أنه لم يكمل المشوار الذي اقترحته عليه تلك الهمسة السمراء ليلتها بل أخذ يتجول بخطوات وئيدة و معتدة و هو سكران من شدة الزهو و متأهب لسماع مزيد من الهمسات التي ستؤكد ما ذهبت إليه السمراء.
و تعجّب جميع الجماعة من سلوك طارق الذي كان اسمه قبل قليل فيصل و الذي صار متماهياً مع عمار في شبكة من التداخلات العنكبوتية و قد تعجّب جلال و طلال و جمال و بلال جميعهم تعجبوا و عماد و فؤاد تعجبا وعبد العظيم تعجب و هذا التعجب الذي أضعه أمامكم بصيغة المفرد والمثني و الجمع لم يأت من فراغ. و للتأكيد على أن التعجب كان شاملاً فان سلمى قد تعجبت و تعجبت معها هند و دعد و وعد ورحاب و رباب و اشراقة الباغة و هذا تعجب بصيغة جمع المؤنث السالم كم ترون وكما ترون فان اللغة قد منحت السلامة للمؤنث و ركزت على ذلك و عليكم ملاحظة كيف يطرب علماء اللغة عندما يذكرون عبارة جمع المؤنث السالم و هو الشيء الذي لا يحدث مع المذكر (ربما ينطوي الأمر على مؤامرة دبرها الرجل ليلقي في روع الأنثى أنها كائن هش قابل للانكسار حتى في اللغة مما يخول له الإشراف على أمر سلامتها داخل اللغة و خارجها..هكذا يقول الفلاسفة و الحكماء المناصرين لقضايا المرأة و المرآة) و هناك تعجب بصيغة جمع التكسير (على الحكماء أن يبينوا لنا ما هي علاقة انكسار الأسماء و الصفات خارج اللغة و داخلها بانكسار الخواطر) و هناك صيغة منتهى الجموع لابدة بمكان ما و تنتظر سانحتها لتنقض بينما الممنوع من الصرف بالمرصاد لتلعثمنا لكننا سنبذل قصارى جهدنا لتصريف هذه الحكاية التي تكأكأت عليها الطحالب والفطريات و سنستعين في ذلك بالفلاسفة و الحكماء و الشعراء الصعاليك بعد الله سبحانه و

تعالى. (ربما لن تسمح لنا الظروف الشرسة المحيطة بنا لنستعين بأحد و لكن هل نتوقف؟) لا و ألف لا.
كيف ترمقه بتلك الطريقة و تحرّك شفتيها بتلك الطريقة أيضاً (وربما مواضع أخري من جسدها لا يمكن رؤيتها من موقعنا هذا) ثم يدنو منها و بغتة يدير ظهره و قد تحوّل من عصفور ظمآن إلي طاؤوس ورمان, هذا ما دار في أذهان الفتيات و هن يتتبعن المشهد و يتحرقن لمعرفة ما سيسفر عنه أما الفتيان فقد تخلّصوا من ذهولهم بسرعة فأطلقوا ضحكة مجلجلة و ضربوا على أكف بعضهم البعض بعد أن أضاع الولد الأحمق(الأحيمق) فرصة سهلة بينما المرمى مكشوف و حارسه المتواطئ في شوق إلي دخول الهدف فيه.
ماله يتبختر و كأنه طاغية يستعرض المعارضين قبل تنفيذ حكم الإعدام.أنني استعجب و ها أنا أشهد جميع الفلاسفة و الحكماء القدامى منهم والجدد على التصرفات الغريبة التي أضحت ديدناً للفتى الولد فيصل الذي هو نادر جلال الملتبس والمتداخل تداخلاً اندماجياً مع عمار المطرب الشهير الجهير, حلو القسمات مكسر البنات.
رفض مرافقة شلته في تلك الليلة و لم يأبه بتعليقاتهم اللاذعة و لما بدا للشباب أنه موغل في الغطرسة و العنجهية و العنطظة انهالوا عليه بشحنات سباب ثقيلة بمفردات مستلة من ذلك القاموس الرابض أسفل الصرة وجبصوا له تجبيصة جماعية على سبيل التوديع (لا يسألن أحد عن معنى التجبيصة فالسياق واضح و العهدة على الراوي). آوى إلي فراشه و همستها الباسمة ترفرف من حوله و تدغدغه و لم يأته النوم من شدة الزهو و طفق يستعجل الصباح ليجرّب معجزته الجديدة التي ستخول له تحطيم قلوبهن بالمجان (حيث ستكون وسامة عمار التي أضافتها همسة السمراء إلى رصيده بالمرصاد لأحلامهن المتعلقة بالفرسان) فقط عليه أن يشهر وجهه و يرفع حاجبيه على نحو ما يفعل عمار فيتهافتن صوبه و يتسابقن باتجاهه و يصبح مادتهن السرية التي سيحرصن على استذكارها بجميع حواسهن والتي سيحلمن بالرسوب الناجح في امتحانها للحصول على ملاحق و ملاحق لها.(الرسوب الناجح في المواد السرية – بل في مادة الأسرار الكبيرة و هي العلاقة بين المرأة و الرجل – يعني الانتهاء بالعلاقة إلي الفراش بدون زواج أو علي الأقل بدون شروط مزعجة يفرض علي الطرفين الالتزام بها و الابتداء به و جعله أي الفراش الإجابة الوحيدة لسؤال الحب) هكذا يقول الحكماء.
لكن الفتى أضاع الطريق إلي الفراش و أخذ يحوم حول النار كما يفعل الفراش.
حكاية الفراش و الفراش في هذه الجهات طويلة ومعقدة و لا بد من الإتيان على طرف منها و حسناً نفعل.
هذا المجتمع الذي ننتمي إليه يعد محافظاً و لكنه مع مرور الزمن و لأسباب ديموغرافية طبوغرافية اكتسب ملامح مجتمع شبه محافظ و هو في هذه الأيام لا

يجد ما يحافظ عليه و سيأتي عليه يوم ينتحر فيه نتيجة للدوار الذي يزعزعه و يزلزل أركانه و يفتته و يشظيه.
هو الآن مجتمع من كل بستان زهرة و من كل واد عصا و هو سمك لبن تمر هندي و خلطبيطة و كمبليتة بي شخيطة فهو محافظ ومنفتح و بين بين و كالغربال حسب الظروف فمن تراه محافظاً في الصباح قد يدير ظهره للقيم المحافظة في الليل و أيضاً يريد كل شاب من أخواته أن يكن محافظات و لفروجهن حافظات بينما يطلب لنفسه حياة متحررة بلاجية ميامية مع أخريات يريد إخوانهن لهن أن يكن محافظات و كل شابة تحاول التحرر و الانفتاح و خوض تجربة الفتح و تبالغ في التظاهر بالمحافظة على عفتها و شرفها للحصول على عريس و هنالك شرطة النظام العام و قانون الطوارئ و السيارات ذات الزجاج المظلل الذي صدر قانون يمنعه ثم جرى تعديله فصار التظليل ممكناً مقابل مبلغ من المال و هذا باب و اسع تتداخل فيه العوامل الاقتصادية مع الثقافة الشعبية مع الغزو الفكري و لو مضينا فيه أبعد فعلى حكايتنا السلام.
وهل هناك حكاية أصلاً؟
لقد ضاعت منا.
دعونا نبحث عنها.
أصبح طلال مهووساً بالشبه الذي بينه و بين عمار و صار يقضي كل وقته في البحث عما يكرِّس هذا التشابه و يدعمه. وعماد هذا الذي هو طلال صار ينتظر خروج الفتيات من ثانوية الحميراء و متوسطة أسماء و حتى ابتدائية الخنساء ليشق طريقه وسط ذلك المهرجان الأنثوي اليومي برأس مرفوع و يداه داخل جيبيّ البنطلون و أذناه مشرعتان و متحفزتان لالتقاط تنهيدة أو آهة و جملة كالتي سمعها في الحفل لتمنحه جائزة الوسامة و لم يكن يخفض نظره إلا لماماً, فقط يرهف السمع و يرهفه و يرهفه و يرهفه غافلاً عن المثل القوي و القائل:(الرهيفة التنقد) أي أن سقوط الجدار المتهالك أفضل من بقائه واقفاً, و هو كان يفعل ذلك (أي يرفع رأسه هكذا و لا ينظر) لتوهمه أن القلوب تختلج الآن, و الأجساد تسري بها ارتعاشات لذيذة كالأيسكريم و الأشواق قد بلغت الحناجر و هي قلوبهن و أجسادهن و آيسكريمهن و أشواقهن, و هو ينتظر الآهة أو الجملة أو التنهيدة ليخفض بصره قليلاً و يشمل القطيع بنظرة هي بمثابة طوق النجاة و سيدله حدسه علي من تستحق التشبث بهذا العنق فيغمز لها لتطير صوبه لا إراديا لتمنحه كل ما عندها و أشياء أخرى ستستعيرها من هنا وهناك من أجله و من أجله فقط.
كن يتبادلن النظرات و يبسمن.
و بسمن عن برد خشيت أذيبه من حر أنفاسي فكنت الذائبا
لسان الحال حالهن يقول:ما هذا؟

و همست أحداهن لصاحبتها:الرشاقة قتلت اشراقة (يعني أن من يرغب في اصطيادهن عليه تجنب مثل هذه الحركات المكشوفة للفت الانتباه). هذه ردة فعل غير مبشّرة و على صاحبنا الذي نسينا اسمه أن يتنبه لنفسه و أن يكتشف بأسرع وقت ممكن أنه يسلك الطريق الخطأ.

لكنه هاهو في كل مكان و لا هم له إلا إثبات عماريته وتعلية عمارته.

و ما هذه التي نحن بصددها هذه التي نحاول تتبع بددها و إحصاء عددها؟

أهي قصة حب؟ أم قصة جنون؟ أم هي قصة حرب يشنها الناس على بعضهم و على الأشياء ليجدوا مكاناً لكياناتهم في زحمة الوجود و زخمه؟

هل نترك هذا كله و شأنه لندلف إلي أمر آخر؟ و لماذا؟ أليس وصف الفتيات و هن يتهامسن ويتمايلن في الطرقات بعد انقضاء اليوم الدراسي أمر مسلّي؟ و لكن التسلية ستنقلب إلي غم كما هو شأن كل الحكايات الواردة هنا لذا لن نترك شيئاً و هيا بنا نستقصي ما يدور في دخيلاء هشام وخيلاءه.

ما الذي تفعله يا هشام و ما المقصود به؟ هل هو نوع من تهشيم الذات إلي ذرات أم هو سعي إلي تهميشها ؟ و هل لوسائل الإعلام دخل بما يدور في الطرقات؟ أي أن ابن آدم ينبهر بما ينهمر من الشاشات فيتهشم و يصير هشاماً ساعياً إلي تأكيد دونجانية يجد نفسه مجبراً على الالتزام بشروطها نتيجة لتشابهه بشخصية نجم يعرفه الجميع و تهيم به الصبايا. أي أن الإعلام يفرض علينا قواعد صارمة لما ينبغي أن نكون عليه حتى نصبح محبوبين و يشار إلينا بالبنان.أي أن الإنسان ناقص و الاعلام يدّعي أن اختصاصه سد ذلك النقص بما يبثه, و هو فيما يفعل ذلك يخترق ابن آدم و يحرقه و يزيده نقصاً على نقص.وحتى نضع الجميع في الصورة ننقل شذرات من ندوات عن العولمة والنكوص الذاتي شارك فيها حكماء و علماء و فلاسفة يحترمهم الجميع و يجدون صعوبة كبيرة في تحويل حكمتهم و علمهم و فلسفتهم إلي واقع معاش.

و ماذا قالوا؟

الشاشة تبهر الناس و تفرض عليهم تصوراً للعالم ملئ بالخدع و البهلوانيات و الأكروبات التي لا يحتاجها الواقع بصورة ملحة أي أن الإنسان ينشأ مثقلاً بشكوك مضنية حول مهاراته و إمكانياته و القيم السائدة و أساليب العيش المتعارف عليها, باختصار وجوده كله فالشاشة تعرض كمالاً مزيفاً ساعد التطور التقني علي تضخيمه و تجسيده و كأنه المثال الأرفع الذي يجب أن نسعى إلي بلوغه بالتوازي مع واقع تغيب عنه أدنى الشروط الإنسانية لأنه واقع يسوده الفقر و يتحكم فيه الجهل و يحاصره المرض و يفتك به الجوع و تمرح فيه الحروب و النزاعات و يتلاعب فيه الساسة بمصائر مجاميع ضخمة من البشر ..

و قالت ناقدة أدبية و باحثة اجتماعية:

الحب في عصر القنوات الفضائية صار ترفاً يصعب التعاطي معه وفق ما تعارف الناس عليه و ما يتوافق مع ما جبلوا عليه كبشر من نزوع إلي التواصل مع بعضهم البعض على نحو سوي ما لم تتوفر المواصفات التي توزعها الفضائيات و المواقع الأنترنيتية فالشاب يعز عليه استضافة تلك العاطفة النبيلة التي يفترض فيها أن تسمو بالإنسان ما لم يتوفر لديه قوام رياضي ممشوق و شعر سبيبي هفهاف و بشرة بيضاء إن لم تكن سمرتها من النوع المحسّن و الجينز و الأسبورت نوافل لا بد منها لتكتمل الهيئة و الشابة مطلوب منها أن تكون ضامرة الخصر(مكرّبة) بيضاء أيضاً أو ذات اسمرار غير خارج على القانون و أيضاً سبورت و رشيقة و ساحرة الابتسام دلوعة و تعرف ما الفخفخينا و حتى إذا تصادف إن أحد الطرفين مأزوم أو فقير أو محاصر بظروف قاسية فهو قادر على تجاوز كل العقبات و بلوغ الغنى أو على الأقل تحقيق إنجاز لا يقل عن الغنى خطورة, تلك هي بعض العناصر التي بفضلها يستحق الحب وجوده و هي القواعد التي يجب إتباعها حتى يشار إليه بالبنان و يستحق اسمه كحب.

لكن الحب هو الحب لا شروط له و لا قواعد تتحكم في لعبته و الحب هو الحب لأن هناك بدناء و بدينات قبيحين و قبيحات هذا إذا ضربنا صفحاً عن الزنوج و القطاعات الكاسحة ممن يعيشون تحت مستوى جميع الخطوط و لا أمل لهم في تحقيق أي نوع من الانجاز و كل من هم أكثر عرضة للتأثير السلبي للفضائيات فهم إزاء السيل العرم من قصص الحب المتألقة و اللامعة المحلقة في السماوات لا يملكون سوى إحساس مزمن بالضآلة و الدونية و قد يصل الأمر بهم درجة احتقار فكرة الحب نفسها إذا لم يحتقروا أنفسهم و حبهم المهدد دائماً.

الفتيات في مجتمعاتنا المغلقة لا هم لهن سوى تقليد عارضات الأزياء و الواقع لا يكف عن مد لسانه لهن. و الفتيان.. ماذا يفعلون؟ كل شئ و لا يحصلون سوى علي الهشيم كما حدث لهشام. و ماذا حدث؟

دعونا نسمع و نرى.

هاهو يتهادى تحت الشمس الحامية في المحطة الوسطي و هاهو يظل في لف و دوران منذ الصباح و لا يعود إلا في الهزيع الأخير من الليل.

الهزيع؟!

لا تنزعجوا فالسياق يفرض علينا ألفاظ مثل هذه و لا بأس من قليل من البلاغة للعودة إلي جادة الصواب بين فينة و أخرى. و ينطلق. انه لا ينطلق بل يتبختر. انه البختري. و هو المتبخر ثم المتكاثف إلي سحابة تريد من العالم و العالمين الوقوف على قدم واحدة من أجلها فلا تحصل على شئ سوى اللامبالاة و تكسحها الريح و يكسفها السياق.في بداية أمره لم ينتبه إلي أن لا أحد منتبه إليه لأن استغراقه في رفع أنفه و تصعير خده (هذه أيضاً يفرضها السياق) كان أكبر من أن يسمح له بالانتباه إلي أمر آخر. لكنه ما أن انتبه إلي أن العالم غير منتبه- و

كذلك العالمات المعنيات بالمسألة- حتى سدر في غيّه (ضرورات السياق مرة أخرى) فقرر أن يكوي قلوب العاشقات المتغافلات و المغفلات بعنجهية لم يشهد التاريخ مثلها. (الحكماء يقولون أن الناس إنما يتعنجهون كردة فعل على أوضاع بعينها و لسد و لردم بعض الحفر الباطنية الجوفية و قد صدقوا).
و في المحطة الوسطى, في لجة من الضجيج و العجيج تحت سماء مكفهرة و على أرض مغبّرة نظر ملياً (وكان ذلك عقب اتخاذ قرار العنجهية مباشرة فتوهم أن قراره الثوري قد أتى أكله في أقل من ٥٠ ثانية) فإذا بفتاتين تتجهان صوبه وتمعنان في النظر و الابتسام و لما دنتا كفّ عن السير شامخاً بأنفه شمخة قوية و كأنها نتيجة خمشة مخلب ذهبي تعرض لها الفتى في غفلة من أمه فبلغته ضحكتيهما القصيرتان المكتومتان التوأمان و عبارة ضهبان.
هل نقول أن الدنيا أربدت و أسودت في وجهه؟ بالله عليك تخيّل أنك كنت تبني قصراً و أنك سهرت عليه كما يسهر الفرانون على العجين و أنك دعوت الوزراء و السفراء و الأعيان لحضور حفل الافتتاح و في اللحظة التي تناول فيها الوزير المقص لقص الشريط و إعلان الافتتاح بصفة رسمية و في اللحظة التي تعالى فيها التصفيق و التهليل تهاوى البناء حجراً حجرا و تطاير غبار الحطام و تهادى صوب عينيك, ما يكون شعورك و كيف تكون ردة فعلك تجاه الداهية الدهياء التي طرقتك؟!
و هو بات على موعد مع غبار الحطام في كل مرة يخفض فيها بصره للقاء بعيني سعيدة الحظ. هنا علينا أن نلبس ثياب الحكماء و نقول:
هذا ما جناه الدش عليّ و ما جنيت على أحد.
و كردة فعل على هذه اللامبالاة الكيدية الكاوية عاد إلي ساحات الأعراس عودة فورية قوية كلفته جهداً طائلاً في غسل و كي البنطلون الوحيد و القميص الوحيد و تلميع الحذاء و كان بينه و بين نفسه يعتقد جازماً أن الشبه بينه وبين عمّار أظهر ما يكون في الحفلات. دخل السرادق وحيداً كما يدخل الكاوبويات إلي البارات في أفلام الوسترن. منذ أن سمع تلك العبارة و هو يتعالى على شلته و هم يسخرون منه, منذ تلك العبارة و هو وحيد من الخلان في كل بلدة يطارد شيئاً عن كونه و الليالي تطارده (و هو حيد قرن منقرض و هو يطارد شيئاً بحذف نقاط الشين و تشديد الهمزة).
بدون الدخول في تفاصيل فان هذه حكاية مسخ و استنساخ سببها العولمة و التزييف الإعلامي. الجميع مسوخ ماسخة تنسخها الناسخة.
و هل يعلم الفتى أن تقليعة عمار الزبير قد أفل نجمها و تلاشت لتفسح القلوب مكاناً لنجم جديد اسمه مازن.الفنيات الآن يلهثن صوب كل من في تقاطيعه أهون ملمح مازني. و الفتيان يحاولون تقمّص حركات و سكنات المغنّيّ الوسيم ما و سعهم الجهد.

و صاحبنا كالأطرش في الزفة. ما زال يرهف السمع لكنه شرع يتخلى عن كثير من رفع الأنف ويتجول بعينيه استراقاً فلا يقع إلا علي قطعان من الفتيات بتنورات مشقوقة من الخلف و من الجانبين و بنظرات زائغة و ضحكات مستعارة من بطلات الأفلام عندما ينفردن بالأبطال في غرف النوم. ما أبعده الآن عن غرف النوم. ثم إن الأمر لا يتم إن تم في غرفة نوم. ربما زقاق مظلم يفي بالغرض.خرابة مهجورة. بعد كل هذا الوقت المنقضي قبالة المرايا و في الحمامات و الكوافير و الاحتلام و الاستيهام و التحليق ببساط ريح الغرام بين الغمام, صدقوا أو لا تصدقوا خرابة مهجورة. و قد ينتهي الأمر بكارثة اذا ما تصادف مرور سيارة الدورية و فضيحة داوية و سيرة تلوكها الألسن و تجعل منها قبة وما حبة.
وعلى كل حال فقد تحولت حكاية الفتى إلي سيرة تلوكها الألسن رغم أنه لم يدخل بها خرابة. ما حصل هو أن الفتى بعد أن أعيته الحيلة هداه تفكيره إلي خطة نفذّها ما أن سنحت له فرصة للتنفيذ. ذات حفل انتظر الاستراحة التي تكون بين فاصل غنائي و آخر. ركض صوب المسرح و شغّل جهاز التكبير و التقط المايك و أخذ يصدح بأغنية صارت قديمة كان يصدح بها عمار الزبير. بالغ في رفع حاجبيه و في التشبث بالمايك كعمار في الأيام الخالية مع التمايل على أنغام موسيقى لا يسمعها أحد سواه. للحظات ألتوت الأعناق صوب المسرح و كفّ الشبان عن مد القرعة للشابات و تركت الأخيرات التمنع وهن راغبات ليروا ما هذا؟! ثم تعالت قهقهات و صفير احتجاج و اندفع شقيق العريس و أبن أخت العروس فاحتملوا الفتي و ألقوا به خارج السرادق.
و منذ ذلك اليوم و قلبه معلّق بمكبرات الصوت والمايكات. بات مقتنعاً أنها الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تثبت عماريته أو على الأقل لفت الأنظار إلي تلك العمارية المهدرة و المهددة بالانقراض.
لكنه سلك طريقاً شائكاً مفروشاً بالمصاعب والعلقات الساخنة. هكذا هو مصير الثوار والمناضلين, دائماً يبذلون الدم والعرق و ينتهي بهم الأمر إلي النسيان و قبل أن يطويهم هذا الأخير فإنهم يصبحون و يمسون موضوعاً يتندر الناس به.
و قد كان أكثر القوم تندّراً به:النساء و تحديداً بنات المدارس اللائي يا ما حلم أنهن يحلمن به بوصفه فارسهن المغوار.ثم أعتاد الناس عليه و أطلقوا الألقاب فهو فنان الشباب و مايكل جاكسون و العندليب الكحلي (نسبة ألي قميصه الكحلي الذي لا يمتلك غيره) و جد و كد وما وجد.
و ماذا حصل لباقي الشلة؟
لقد اختفوا و لم يقع لهم أحد على أثر.
تبعوا الصوت و لم يعودوا.
ألم أقل لكم أنهم كانوا يقضون سحابة النهار في الطواف بالأزقة تنقيباً عن معالم دالة على حفل ليؤموه ليلاً؟

ذات يوم تفرقوا هنا وهناك و نقّبوا و سألوا طوب الأرض عن حفل فلم يعثروا حتى على علامة تبشّر بليلة ثقافية مما تنظمه روابط طلاب الجامعات و المعاهد العليا. لم يصّدقوا الأمر عندما اجتمعوا و عرض كل واحد حصيلة بحثه التي كانت صفر. و لأن ذلك مستحيل فقد قرروا إعادة الكرة عصراً و الاجتماع عند الغروب لتدارس الأمر. و عندما اجتمعوا مرة أخرى كانت النتيجة هي هي: لا شئ. و بعدين. أيعقل هذا؟ و جلسوا كأن على رؤوسهم الطير. ما هذا القحط؟ أنه يوم الرمادة بالنسبة للمتسكعين الذين تعلقت قلوبهم ببيوت الأعراس و الطهور و السماية التي يغشونها لشحن البطاريات لا أكثر و لا أقل. من يراهم هكذا يلفهم الصمت و الوجوم لا يشك في أن جللاً قد أحاق بهم.
و تضاعف سوء الحال عندما حانت ساعة الصفر و لم يسمعوا النفخة المعتادة لمكبر صوت و لا نقر على طبل و لم تقع أبصارهم على بنات يتسللن لواذا لواذا و ما داعبت خياشيمهم نفحات جوب مختلطة بالفير و متداخلة مع صانصيلك. تلك من أشد لحظات الشاب المطلوق تعساً: أن تمضي عليه ليلة لا تكتحل فيها عينه برؤية بنت تخطر في الجفايس و أخرى تتهادى في البودي و ثالثة تزيح خصلاتها المذهّبة بالميج لترسل نظرة كالصاروخ الموّجه سكوت, توماهوك كروز ارض جو بحر النيل, حرام انقضاء الليلة دون أداء القسم و أهم من ذلك دون اطلاق تلك الصرخة البدائية التي تنطلق لا إراديا عندما ينكشف جزء عزيز و غال علي البنت و هي منغمسة في الرقص بكل حواسها, خسارة فادحة مضي الليلة هادئة لا تتصاعد فيها أكليشيهات حفلات تلك الجهات مثل الفاصل الجاي للعرسان و يا شباب الحفلة حفلتكم بس شوية من المسرح الخ.
هاهم يلفهم الصمت و تحاصرهم الكآبة. ليس لديهم ما يفعلونه و عندما كفوا عن التحديق في وجوه بعضهم البعض تثاقل الصمت و ما هي إلا هنيهة حتى تناهى إلي أسماعهم أزيز النفخ المعهود و عبارات مثل ألو ألو وتيستا ون و هلم جرا. انتظر كل واحد حتى يتأكد من أن الصوت لا يتصاعد من لا وعيه بل يحمله الهواء و تريث كل واحد منهم حتى لا يتهم بأنه موهوم, و لكن عندما تعالى النقر على آلات الإيقاع و أقشعرّ الهواء بنقرشات الجيتار هبوا من جلستهم البائسة تلك هبة رجل واحد و أطلقوا و بصوت واحد صيحة ياهوو الشهيرة و اندفعوا يركضون باتجاه الصوت مثل أسرى فك أسرهم.أتى بعد يأس مطبق فانبعثت فيهم الحيوية و أنتابهم نشاط كالذي ينتاب العاطلين و المتسكعين و الصيّع ساعة يتوجهون إلي المواقع التي تسمح لهم بدفن بؤسهم و عذاباتهم الصغيرة وهي محطات البصات و حفلات الأعراس و الأسواق.
في الطريق إلي الحفل طفقوا يورجغون كالبحر سعداء بالنجاة من ربقة انقضاء الليلة دونما تكحيل للعين وتسليك للأذن, قمصانهم الكاروهات باهتة, وجوههم

كالحة, جيوبهم مثقوبة, الحياة أعطتهم قفاها فجبصوا لها تجبيصة نكراء و أخذوا على أنفسهم عهداً أن يضربوا الهم بالفراولة.
عبروا أزقة كثيرة وعندما بلغوا الميدان الذي اعتاد السكير أن يقعي فيه كان مقدم الحفل يهنئ العروسين و يتمنى لهما المال و العيال. الصوت قريب تحسبه في الزقاق المقبل عند المنعطف و عندما انعطفوا وجدوا الزقاق قفراً بلقعاً. ربما في الزقاق الذي يليه. غذوا الخطى صوب الذي يليه فوجدوه كصحراء بيوضة و التالي كان ألعن من صحراء كلهاري و بالمختصر المفيد أطبقت عليهم الصحاري من كل الجهات و ظل الصوت يستدرجهم حتى بلغوا نهاية العمران فبات واضحاً و قوياً و واعداً بحفل لا مثيل له. وبعد تخييط الأزقة طولاً و عرضاً نبه أحدهم أن كل مطربي الشباب يحيون الحفل فاهتزت الرؤوس طرباً و احتدم لهيب الرغبة الكامنة في الانغماس في ساحات الحفلات ضراماً. و أليل الليل و نعست النجيمات و هم يتبعونه. لم يتنبه أحدهم إلي أن الوقت الذي حدده قانون الطوارئ لانتهاء الحفلات قد فات و كيف لهم أن ينتبهوا و الصوت واضح وضوح الشموس في هاجرة الليالي و الصحاري. و قبيل الفجر أشتد صخب الحفل الهارب فتحفزت أخيلتهم وهي تتمثل صورة نهايات الحفلات التي تفتح فيها الملائكة و الشياطين نوافذ علي النعيم والجحيم الذي ينتظر البشر بمكان ما فتحزموا وتلزموا و عزموا عزماً صادقاً و مخلصاً على اقتحامه حتى لو كلفهم ذلك حياتهم. يا قاتل يا مقتول.
قال أحد حكماء الزمن القديم:

و أنا الذي اجتلب المنية طرفه
فمن المطالب و المطالب و القتيل القاتل

يقول أنا الذي جلبت الموت لنفسي بنظرة عيني فأنا القتيل والقاتل. و لماذا الحديث عن القتل هاهنا و كان الحديث عن الحفل. ألأن الحفل في هذه الجهات حتف؟ احتفوا بالصوت فاختفوا و هللوا له ليباركهم فقادهم إلي مصارعهم.لم يقع أحد على أثر لأولئك الشبان بعد تلك الليلة. أغلب الظن أنهم تاهوا في الصحراء رغم أنه لا توجد صحاري في الجوار. أنقطع الصوت عندما انتصف النهار و أخذ التعب منهم كل مأخذ و نال منهم الظمأ و الحنين الذي يعتمل في دواخلهم اغتاله الهجير فتهاووا كاجذاع نخل خاوية.
هذه أرض الخواء.
إلي هنا تنتهي حكايتنا و دعونا نرى ما يخبئه لنا التسكع. لكن ماذا عن صاحبهم الذي يناضل لإثبات عماريته. ما حل به؟ لا شئ. أنه حتى لا يعرف أن تقليعة مازن قد أقلع الناس عنها و أن البحر يورجغ من البرحاء.

تعقيب

ما انتهت الحكاية لكن لا مناص من التعقيب. شرب الفتى المقلب و ارتوى عطشاً. مقلب عبادة المفتاح و نسيان أن المفتاح أنما يوجد لفتح باب بعينه. المفتاح كان عمار و الباب حكاية حب ربما كانت ستولد إذا ما سلك الطريق الذي مهدته له البنت. كان يتوجب عليه مشاركتها الرقص ومن ثمّ تبادل العناوين تمهيداً لتبادل القبلات إذا دعا الداعي.

هذه البلاد لا عناوين فيها لكن الأمر يرتبط بالتقليد الأعمى لما تبثه الشاشات.

طمع الفتى في جميع الفتيات و ترك التي وضعتها الأقدار في طريقه فضاع عليه الطريق.

للهو آونة تمر كأنها قبل يزودها حبيب راحل

أنه لم يتزود فسقط قبل بداية الرحلة.

لا ندري بمن سنلتقي و ما نتقي و كل ما قد خلق الله و ما لم يخلق شقي و ابن شقي.

بصيص من عطر

الحكاية التالية عثرت عليها ضمن أوراق تخص شاباً عاش في حارتنا و كان يكتب الشعر ونشر بعض القصائد في الصحف قبل أن يختفي عقب انقلاب عسكري و بعد قراءتها تأكد لي أنها محاولة لرصد محاولات البهائي في مطاردة البهاء و وجدت أنني ملزم بنقلها و التعليق عليها بوصفي شاهد عيان و صاحب اهتمامات حكائية.
ذلك الشاعر عاش حياة غريبة بعض الشئ (رغم أنه لا يوجد مقياس لتحديد كيف تكون حياة ما غريبة) و قد أشيع عنه أنه ابن زنا لأن المرأة التي عاش معها و كان يظن أنها أمه لها سوابق في استجلاب أبناء الزنا و الاضطلاع بتربيتهم و المشهود أن الذين ربتهم قبله اختفوا قبل أن يشتد عودهم.
المهم في الأمر أن الشاعر كان لا يختلط بأهل الحارة قليلاً أو كثيراً لذلك صار من الأشخاص الذين يهتم بهم الناس و يتسقطون أخبارهم و يلوكون سيرتهم.
و في الحارات يصير الشخص نجماً إذا واظب على سلك سلوك بعينه و هو في الغالب سلوك لا تقره الحارات وترى فيه نوعاً من الخروج على قوانينها غير الصارمة خصوصاً إذا ثابر الشخص على سلك السلوك غير السالك رغم نظرات و عبارات الاستهجان التي تطارده أينما حل. و أهم ما يميز أهل الحارات أن اهتمامهم بغرابة (قل غربة) شخص ما تمر بعدة مراحل.
في بادئ الأمر يسخرون من الغرباء و يضيقون بهم و بعدها يقبلون بهم على مضض و قد يعودوا ليضيقوا بهم و بوجه عام فان مرحلتي القبول على مضض و الضيق متداخلتان و هما من أطول المراحل و أكثرها افتقادا للملامح و السمات و الأسباب الموضوعية و قد تتحكم في نظرة الجماعة للغريب طيلة تواجده بين ظهرانيهم ما لم يتدخل انحراف في مسار الأحداث يعيد صياغة العلاقة بين الجماعة والغريب كأن يسافر أحدهم(أولئك الغرباء) ليعود بعد غيبة طويلة أو لا يعود أو كأن يختفي أحدهم في ظروف غامضة عندها يقوم أهل الحارة بتدشين المرحلة الأسطورية و هاك يا حكايات.
هذا الشاعر اختفى و ماتت أمه الغريبة (لها حكاية قد نحكيها و قد نتركم تتخيلونها) بعد اختفائه و ظل بيتهما في طرف الحارة القصي كما كان قبل رحيلهما معتماً و هادئاً (لاحظوا معي أن الحكايات تولد في الأطراف و تبدأ تتلمس طريقها إلي المركز و أنها تتشكل في العتمة و عندما تشرع في التنقيب عن الضوء تتورط في عتمات أحلك) يتجنب أهل الحارة الحديث عنه و يبسملون و يحوقلون إذا تصادف مرورهم قريباً منه و أول مرة تيسر لنا فيها دخوله كانت مع قدوم سكان جدد نهضنا نحن الشبان العاطلين لمساعدتهم في نقل الحاجيات القليلة لساكنيه الراحلين و بينما كان الشبان منشغلين بالتلصص على البنتين الفائرتين للسكان الجدد أثارت حقيبة حديدية اهتمامي فتحايلت للاحتفاظ بها و نجحت لأن أغراض أولئك الراحلين ما كانت لتثير الاهتمام بل مثّلت علامات شؤم

كان علينا التخلص منها و قد تظاهرت بأنني سأتخلص منها و احتفظت بها. أصبحت الحقيبة برنامجاً أعود إليه لأقلّب المحتويات في محاولة للتعرف علي الأسباب التي جعلت ذلك الشاب يعتزل الناس من حوله على ذلك النحو.

عثرت على مجموعة كتب و قصاصات من صحف و دفتر يضم أشعاراً و دفتر آخر كتب على غلافه (بصيص من عطر) و أوراق يبدو عليها القلق. الخط جميل و معتنى به يدل على إن صاحبه كان لديه وقت كثير لا يعرف كيف ينفقه. قرأت البصيص و استبشرت خيراً لخلوها من التدخلات المباشرة للحكماء و الفلاسفة و أشباههم. ثم بدت مملة ككل الحكايات التي يحاول أصحابها تغليفها بالضباب و السحر و مطاردة المجهول و لا بد أن حماقة صاحب البصيص خولّت له تصور أن الخوض في مثل تلك الأمور يمكن أن يتم بدون الاستعانة بحكمة الحكماء و فلسفة الفلاسفة.

إن حكاية البصيص هي حكاية متسكع يبحث عن الصور الاستثنائية فقد أثقلت كاهله صفاقة الوجود و أمرضت روحه عضة القيود فسعى لتكريس القطيعة و نذر نفسه لمطاردة البصيص و الأرجح انه ضاع و هو يلهث خلفه و لا دخل للانقلاب العسكري باختفائه كما قد يظن بعض عشاق البطولات العاجلة و الزائلة. و نريد أن نسأل هنا كيف تبدو صورة ما استثنائية و مم تستثنى. و هل يصدق عليها ما يصدق على المستثنى في النحو أي المخالفة لما قبله في الحكم أم أنها حكاية تمرد أصيل و أصولي على كل تبعية, أكبر من معنى الاستثناء الذي تفرضه اللغة على كلماتها, ثم تعود لتلقي بشباك التبعية بالبدل و المشاركة في النوع و هلم جرجرة و جرا. إن العيش (أيضاً الخبز) لقلعة حصينة تغرى من فيها بخيانة قوانينها (ربما لمعاقبتهم على ذلك بعد ذلك) تلك القوانين الصارمة والمهلهلة في آن وما ننجح في جره ليتنفس خارج تلك القلعة هو المستثنى. و ماذا إذا كان الأمر هو جر ما يقع خارج القلعة إلي داخلها بغرض التجديد و الاختلاف و مخالفة الصرامات الحامضة والسامة التي لا تترك ابن آدم و شأنه أبداً. قال بعض الحكماء أن ذلك هو الخطأ الذي لا ينبغي الوقوع فيه. أن تجلب شيئا من خارج القلعة فهذا يعني أنك تقتله بتجريده من حرية الخارج بفرضك شروط القلعة عليه لأن القلعة ما فيها غير الأشراط و الشروط و الشرائط و الشرط و الشرطة. و لكن قال فلاسفة أن الخارج و الداخل يدخلان في عداد المفاهيم الميتافيزيقية النسبية فكل خارج هو داخل على نحو ما أي انك عندما تكون في الموقع (أ) و تحلم بالموقع (ب) فانه يصير خارجك الذي هو داخل من هو هناك و الذي ربما يحلم و يتوق إلي (أ) أو (ج) أو (كشاجم) و هو أمين لقول شاعره:

حبيب كأن الحسن كان يحبه   فآثره أو جار في الحكم قاسمه

حلوة و إن كانت لا تتماشى و السياق لكننا نتبناها هنا لما فيها من حكمة و جور و داخل لا يكف عن التطلع إلي ما هو خارجه و خارج ما دام هناك ما يجاوره و

يحاوره فإنه لا يهدأ له بال ليعرف خارجه فأين المخرج where is the exit? ( ) بينما بشرنا حكيم فرنسي أنه (NO EXIT) و مالنا و الحصون والقلاع و الطلاسم و الحروب الشعواء و كلما فتحنا صندوقاً للحكايات تقافزت في وجوهنا الدمى و هي تمد لنا لسانها. ربما أراد الولد التخلص من (أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي) كلها و من(٠) (١) (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧) (٨) (٩) و كل ما يمت للأبجدية و الحساب بصلة و العيش خارجهما فلما أشتد حصارهما خرج و لم يعد.هناك دفتر الأشعار أيضاً و هو ألعن من البصيص و لا مناص من المضي قدماً في مدح و قدح الزند.

سأتخيل ما يمكن أن يصدر عن حكماء غير متشددين إذا ما وضع البصيص بين أيديهم و لا بأس أن انقل لكم بعض ما تخيلته. و اسمحوا لي بالتدخل في ما أتخيله بالسماح لحكماء آخرين في التدخل للتعليق على ما يقوله الحكماء المتخيلين و لا يفوتنا أن نذكر أن المتدخلين أيضاً متخيلين.

نحن في البصيص على موعد مع كاتب شاب مغمور و مذعور وضعته الحياة منذ البداية في جحر (كما هو حالنا جميعنا إذا تأملنا أوضاعنا بدقة) و هو لم يشأ لم يرغب في مغادرته, لم يحب الاختلاط بالبشر (لا تعجبه الطريقة التي يلتفون بها حول بعضهم البعض و لا الطريقة التي بها يتحدثون) و تبدو له الحياة مرعبة و العالم نفسه ما هو إلا جحر كبير بل أنه أقذر (أقذر؟) على التضييق و الخنق من الجحر الصغير الذي يلوذ به ليكتب فالجحر معه حيث حل (قيل قديماً أن كل واحد يحمل جحره معه) و هو متمسك بالكتابة لأنها الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله بسلام و بعيداً عن كل شيء (ربما حتى بعيداً عن فكرة الكتابة نفسها) و ربما ظن أنها يمكن أن تضعه على تخوم ما أسماه بالبهاء. و هذا أكبر دليل علي إن العالم تغير و تغيرت الأشياء. لا بل العالم مات و ماتت معه الأشياء. و لا بد أن لديكم خبر أن الحكماء و الفلاسفة بشروا بميتات عديدة لأشياء ظن الناس أنها لا تموت و كان من سوء حظنا الانتماء إلي حقب و عهود و عقود ما فيها غير الميتات و الأموات والحياة الميتة و يزداد الحظ سوءا إذا حاول الواحد ربط كل سكنة و حركة من حياته بالفلسفة و الحكمة لأن هاتين لا عمل لهما سوى تأمل الحياة و هي تموت(تنتحر).

و لنقل كما قال بعض الثوريون المضادون:

انتهى عهد الكتاب الذين يذهبون للدراسة في أوروبا و أمريكا و يقفوا على الفتوح العلمية و المعرفية الكاسحة ليعودوا أو ليبقوا حيث هم يندبون الكساح الكاسح الذي ترزح تحت وطأته جحورهم التي هي أوطانهم بلادهم مسقط رؤوسهم و منابع أفكارهم و أشعارهم ينظرون إليها من بعيد كما ينظر الملائكة للعالم السفلي، يظهرون على الشاشات و صفحات الجرائد و المجلات, تزيّن صورهم الغلافات الخلفية الصقيلة التي تدخل إلي الجحور تهريباً و يتشدقون

باطروحات و صف العلاج دون أن يكونوا على علاقة وطيدة و إجبارية و قاسية و مسممة بالجحر كما هو حال صاحبنا الذي اختفى و حالنا نحن المتسكعين الذين يقعون على مخطوطات لن يقرأها أحد. إن البصيص لا تدشن بداية عهد جديد لكنها تفتح نافذة على عالم مظلم ساكن راكد لا مكان فيه للكاتب و المثقف المتمرد المجنون الصعلوك المتشرد المتحدي و السابح ضد التيارات و الذي رويداً رويدا تحوله تلك السمات إلي نجم و يتم تكريس و توظيف صوته و صورته و نصوصه و سيرته الذاتية و تصعلكه و تشرده و تحديه و جنونه في خدمة كل ما جن بسببه و تصعلك نكاية به و تمرد عليه و تحداه فينقلب ظهر المجن و يغرق العصر و ناسه في المحن.

كاتب البصيص يعلم أن لا أحد سيقرأه أو يهتم به لذلك فانه يمضي الوقت في التجول بحثاً عن البهاء أو أصداء البهاء و يعود ليبين أنه لم يجده و لن يجده و يكاد أن يقول أنه ما من داعي للكتابة (لكنه لا يقولها لوهم لديه بأن الكتابة قادرة على أن تشير إلي أن هناك أشياء لا يمكن قولها و هي بتلك الإشارة إنما تنبه إلي ضرورة مواصلة الإشارات لعل المعجزة تحدث و يستسلم ما هو عصي على القول للقول).

هذا كاتب اختلطت عليه الأمور فبدلاً من التمسك المستميت بالكتابة عن البهاء نراه يكتب عن الصعوبة و التعقيد اللذين يواجههما و هو يبحث عن البهاء فكأنه يرثي ميتاً لم يولد بعد و كأني به (كأننا به) يتورط في صفقة خاسرة لا يعرف كيف ينسل من براثنها تلك الصفقة التي قاده لها توهمه أن الكتابة عن البهاء بامكانها التعويض عن مرارة الإحساس بلوعة فقده الأصلية و الأصيلة المتأصلة في الكائن فهو طلب من الكتابة منحه ما لن يمنحه العالم له و عندما تبين عجزها عاد لمناطحة صخرة العالم فهزئت به و مسحت بأحلامه و أوهامه الأرض. الرجل الشاب خسر الاثنين معاً:الكتابة و البهاء و الداخل و الخارج و خرج و لم يعد.

و من الجوانب التي يجب أن لا تفوتني الإشارة إليها أن موقع صاحب البصيص الفكري و الجغرافي غير بعيد عن صاحبنا السابق صاحب القطة فبالإضافة إلي الإقامة في الحارة نفسها فان كل و احد منهما راح ضحية سهلة لأفكار و نظريات مستلة من كتب غير رائجة, كل واحد منهما استل الأفكار من الكتب و حملها معه دائماً و صدقها مكذباً كل ما سواها الأول ليستل العدالة و التنمية بالفعل السياسي و الثاني ليستل العطر و الموسيقى بالفعل المجاني و المتناقض و المعزول عما يحيط به, كل واحد منهما آمن بالأفكار و تعصّب لها و حاول أن يفرض ما تقوله على الواقع الذي يرفض ما تحاول أن تفرضه الأفكار عليه. الأفكار جميلة و خلابة و ساحرة شرط أن تظل في الكتب أو على الأقل في العقل في الرأس في الذاكرة في الفؤاد, سمه ما شئت بينما الواقع غير مستعد لينشغل بما يشغلك لأن لديه ما يشغله دائماً و علينا التطرق إلي شئ نسينا التطرق إليه وقت تطرقنا لما دار بين

إسماعيل و القطة و حاتم و أم إسماعيل و رندة فقد ذكرنا أن حاتم متيم برندة و رندة مكسرة في إسماعيل و إسماعيل مشغول البال و الفؤاد بأخرى و الأخرى تلك هي بيت القصيد فيما يخص وجه الشبه بين صاحب القطة و صاحب البصيص. على أن الحكماء في كل زمان و مكان لم يتركوا المسائل معلقة و لذلك فلا بأس من تعليق تأمل أوجه الشبه بين صاحب القطة و البصيص لنتأمل ما قاله بعضهم في التعلق المعلق.

قال حكيم:

علقتها عرضاً وعلقت رجلا غيري
وعلق أخرى غيرها الرجل
و علقته فتاة ما يحاولها من
أهلها ميت يهذي بها وهل
و علقتني أخيري ما تلائمني
فاجتمع الحب حب كله تبل

وقال الآخر:

جننا بليلى وهي جنت بغيرنا
و أخرى بنا مجنونة لا نريدها

و قال ثالث:

و من البلية أن تحب و لا يحبك من تحبه
و يصد عنك بوجهه و تلح أنت فلا تغبه

بينما أفتى الرابع:

و ما العيش إلا أن تحب و أن يحبك من تحبه

وعند عودتنا إلي أوجه التشابه بين صاحبينا نجد أنها مما يجعل الناس ينتسبون إلي بعضهم دون أن يكون لديهم علم بذلك فبينما صاحب البصيص كرّس وجوده لمطاردة البهاء و هو شيء مبهم و غامض و مستعصي على الاحاطة و الفهم فان صاحب القطة كرّس وجوده لأمر آخر لا يقل غموضاً و بوهمية و استعصاءاً عن البهاء و هو الوطن الذي يريد الحزب الذي ينتمي إليه أن يشيع (لأنه حزب مشع) فيه الخير و النماء و تلك الأشياء التي يكثر ذكرها في الكتب و تغيب في الواقع و التي يكثر ورودها في المنشورات التي لم يحملها معه في الكيس ليلتها فهو بعد حكاية القطة و المنشورات لم يعد يمارس السياسة على خفيف بل اندفع يمارسها كما يمارس الرجال العادة السرية في المجتمعات المغلقة (و يتظاهرون بأنهم لا يعرفونها) و ما عاد متفرغاً لما يتفرغ له الشبان في مثل سنه و ما يتفرع عن ذلك التفرغ لدرجة أنه ربط بين حب الوطن و حب الفتاة الوحيدة التي كانت تمثل القطاع الجامعي في الخلية التي يعمل بها و هي فتاة بنظارات قعر كباية و نحول مفجع و تجاعيد مبكرة في كافة أنحاء الجسد المثقل بهموم الوطن التي تبتلع هموم الأنوثة فحبيبته التي هي زوجته فيما بعد لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تصمد في وجه رندة التي بمقدورها أن تهزمها مئة لصفر و هي جالسة ببيتهم حليقة شعر الرأس. لقد اختار له الحزب و الوطن حبيبته و زوجته التي انفصل عنها بعد حياة قصيرة قلقة و شهد الحزب انقسامات و انشقاقات كما تعرض لضربات موجعات من النظام و وجد إسماعيل نفسه وحيداً لكنه لم يستسلم و ظل يصدر بيانات بالرونيو البيتي تبشر الناس بأن الفجر آت مهما طال الظلام إلي أن اعتقل و نسيه الناس و ما عاد أحد يأتي علي ذكره غير أمه كما جرت العادة (و يلاحظ أنه في اغلب الحكايات يجور الزمان علي الأمهات فتقعين في البيوت للتذكر و البكاء و التعايش مع وجع دفين لا يوصف) أما صاحب البصيص فقد استدرجه البهاء إلي مكان مجهول و تضاربت الروايات بشأنه و ماتت الأم و هي تبكيه قبل أن يطويه النسيان.

عذابهما المشترك يتمثل في الاكتشاف المبكر و الفادح لضرورة تغيير العالم و قد عذبهما أكثر اكتشاف أن ذلك مستحيل و مع ذلك اختارا خوض المعركة و الارتماء في أحضان الانحياز للقضية و الانتماء لأفق الهزيمة بالتطرف في العداوة و البغضاء لكل ما من شأنه أن يصرفهما عن ما كرسا الصحو و النوم لأجله.

قد يتبادر إلي أذهانكم أن المتسكع الهائم على وجهه يحمّل الأمور أكثر مما تحتمل و يصنع من الحبة قبة فمن هم هؤلاء الصيع النكرات الذين تحيطهم بكل هذه الهالات ومن زعيط ومن معيط ومن نطاط الحيط و لماذا لا تحاول أن تبحث لنفسك عن عمل شريف و بنت حلال تلهيك عن هذا الاستغراق في السفه و تقتلع من دماغك كل الأوهام و الهلوسات التي تعشعش فيه و تجعله مشعشعا؟

لكنني أنا المتسكع الضائع أقول لكم إن هذا الكلام غلط يا جماعة و إن الاستخفاف بالتجارب العجيبة و الغريبة للناس المجهولين أمر سوف نحاسب عليه حساباً عسيراً في يوم ما, و أحب أن أذكركم و بالاستناد إلي الفلسفة و الشعر و وادي عبقر أن كل ابن آدم هو نكرة لكن المسألة مسألة اختلاف ظروف و جغرافيا و تاريخ و عموماً و بالرجوع إلي الفلسفة أيضا ما من شيء مهما دق و صغر و تضاءل إلا و هو يستحق التأمل و التمحيص و لو أن لدى كل واحد منا فيلسوف يتأمله و يتتبع تجليات و انتكاسات و انحسارات و تمددات و تقبضات وعيه ولا وعيه لاكتشفنا أننا نحن لسنا نحن و أن العالم ليس هو العالم و أن ما نعيشه لا يمكن أن يأتي و لو قليلاً موافقاً لما تصورنا و خططنا و حلمنا و عملنا من أجل أن نعيشه و لصار ذلك الاكتشاف شمساً مقيمة لا تغيب و ليس ومضة خاطفة (و ربما مرعبة) سريعة الزوال كما هو الحال في زحمة الحياة ذلك كله لصعوبة توفر فيلسوف لكل واحد منا و البهائي و أضرابه أصابتهم ضربة الشمس تلك فما انفكوا يتعاملون مع الأمر بجدية تثير الشفقة و السخرية خصوصاً أنه يتعلق (أي ما تعلقوا به) بعطر يرفرف في الذاكرة و لا يتعب من القيام بمهمة تذكير الذاكرة أن رفرفته ليست عبثاً, إنها حكاية تتعلق بعوالم تناديك في كل لحظة و تهرب منك فور مناداتها لك, تلعب معك دسوسية طول الوقت, لا تدعك تهدأ أو تستكين و لا لحظة و لمقاربته فقد تكتب كلاماً كالذي خطه البهائي في دفتر الأشعار و الذي منه:

ما بين الحياة و لعثمتها
و الموت و فصاحته
نغدو و نروح

فراح و ما غدا.

هناك نقطة هامة بل هي حفرة عميقة تجمعني بصاحب البصيص حاولت تجاوزها و التغاضي عنها لكن ما استطعت و هي المشاركة في ما يسمي بالمراجع الأدبية. امتلاك (جواهر الألفاظ) و الاستعانة به لتقوية المبنى و المعنى و هذا يقف دليلاً على الفقر المدقع للواقع و وقائعه (حيث الجواهر معدومة) مما يعطي بعض الكتب قيمة لا تقل عن التي للكنوز. و الحفرة ازدادت عمقاً عندما وجدت أن مكتبته الحديدية تتطابق و مكتبتي الكرتونية تطابقاً تاماً, فالعناوين هنا هي التي هناك و الخطوط الحمراء التي يضعها القارئ تحت السطور التي يظن إنها تمثل محطات عزيزة ينبغي الرجوع إليها موجودة تحت المقاطع نفسها من كتب كلينا بل إن تلك الثنيات على أركان الأوراق و التي يحفظ بها القراء خروجهم من النص ريثما يعودون اليه متطابقة, الصفحات التي ثنيتها في كتبي هي نفسها التي ثناها في كتبه و أقلقني الأمر و وجدت أن التطابق في الاهتمامات ربما يشير إلي تطابق

أكبر يصعب الفرار منه هو تطابق المصائر و استنتجت أن جميع من يهتمون بالحكايات و الأشعار و الكتب و الموسيقى و العطور يتوقعون أن ينفذ فيهم حكم بالإعدام صادر من محكمة متعالية فيقومون بتأخيره و تعطيله و التحايل عليه بالحكي و الكتب و الفلسفة و ادعاء تسمّع موسيقى لا يسمعها أحد سواهم و تشمم عطر يتهادى من حدائق لا وجود لها كما فعلت شهرزاد و يفعل جميع من يهمهم الأمر و وجدت أن ذلك ورطة كبيرة بالنسبة لمتسكع مثلي, فما دخلي أنا في كل ذلك لكنني أخرجت نفسي من الورطة بسرعة و ذلك بطمأنة نفسي أنني لا ابحث عن شئ (و حتى إذا بحثت ثم اكتشفت أن ما أبحث عنه غير موجود فإنني لا أتمسك شديد) و إنقاذ البهاء من الغرق و اصطحابه معي إلي الغرفة و ما يشبه ذلك من شئون و شجون غير مدرج في جدول أعمالي الذي لا أعمال فيه و شجوني التي لا شجون لها كما عزيت نفسي بأنني يسهل علي الانسلال من الحكاية كلها كما تنسل الشعرة من العجين و الأمر كله لا يتعدى حدود تزجية الفراغ الفارغ بالفراغ و لست مثل صاحب البصيص و إسماعيل و أضرابهم ممن يخرجون فلا يعودون فأنا لا أعرف مكاناً مناسباً أخرج اليه فلا أعود و حتى إذا خرجت سيعرف الخارج (لأن فيه طابور خامس مندس تسلل اليه من الداخل) أقول سيعرف كيف يعيدني إلي ما خرجت عنه لأنني أكاد أكون الرجل الذي بلا خصائص الذي وضع أحد الحكماء كتاباً سعى فيه إلي تبيان خصائصه و هو من أشهر الكتب الخارجة التي لا تعود.
سأترك مسألة التشابه المشبوه و المشوه لأنتقل إلي نقطة أحسب أنها هامة و حساسة ربما تكشف و قد لا تكشف لنا لماذا يلجأ بعض الناس إلي سلك طرق وعرة يتهددها قطاع الطرق طيلة فصول السنة للوصول إلي مناطق و أقاليم و أقانيم لم يتم البت في أمرها بعد, أهي موجودة و تستحق العناء أم إنها من نسج الخيال. و لكن من الذي يبت في المسائل و يحدد لنا ما هو موجود و ما هو غير موجود. صاحب البصيص انطلق من هذه النقطة, نقطة البت و لم ينتظر و قرر لوحده أن البهاء موجود و سلك الطريق الموحش و الوعر و كلما أمعن العالم وحشية أمعن هو في التشبث بأهداب البهاء و ذكرنا أنه بات يعامل كالخارج عن القانون لأنه بتّ في أمر لا يجوز البت فيه هكذا مخالفاً بذلك قوانين الأمم المتحدة و الهمم الخائرة المستسلمة لرتابة الوجود و عاديته.
الدرس الصفيق يتلخص في أن الكوابح الذاتية تحب أن تظل متأهبة للانقضاض على أدنى محاولة للتململ و هي مطورة و تتعامل مع الكائن من موقع ابتزازي خطير و الجهات التي صممت تلك الكوابح كتبت عليها تحذيراً مفاده أن تعطيلك إياها قد يؤدي بك إلي الجنون و أو الموت أو الضياع في صحراء قاحلة ثم الموت مرة أخرى و هي جميعاً مما لا يحبذ ابن آدم وقعها عليه و يتجنبها ما استطاع إلي ذلك سبيلا.

لكن ماذا إذا كان صاحب البصيص قد وصل إلي البهاء فعلاً بمعنى أنه لم يختف بل مقيم الآن في الأرض العصية و البعيدة التي يتجنب الناس التفكير فيها كثيراً تلك الأرض البهية التي غير مسموح فيها باستخدام الألوان و الموسيقى لأغراض تجارية و التي تعاقب علي استخدام الكوابح الذاتية لأن ذلك يعد عملاً غير شرعي في أعرافها الأقرب إلي أعراف الخيول النورانية المباركة.

لا أستطيع أن أدلو بدلوي أكثر من ذلك و الأوفق أن أضع البصيص بين أيديكم مباشرة و الله المستعان.

تنبيه

يدعي المتسكع أنه استبشر خيراً عندما وجد البصيص خلواً من التدخلات و لكن ما هي حكاية الأقواس المستشرية في النص؟ كعادته سلك المتسكع أسهل الطرق فادعى أن الكلام الذي بين الأقواس لم يكن متضمناً في البصيص عندما قرأها للمرة الأولي و انه وقع على تلك التعليقات عندما عاود القراءة فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم و ادعى و هو كثير الادعاء كما تعلمون أنه بات يصادف في كل مرة يعود إليها تعليقات جديدة بين الأقواس و تعديلات و حذف لما بين الأقواس و كأني به يريد أن يوهمنا بأن ما بين الأقواس يحشر نفسه ليسخر من الحكاية و الحاكي انتقاماً من حشرية الحكايات نفسها و تحرشاتها و هو أيضاً يوهمنا أن الأقواس مواسي حادة تتربص بالصمت و الكلام.

البصيص

بذلت جهداً كبيراً حتى أبدو مهندماً و وسيماً. ألقيت نظرة أخيرة على صورتي في المرآة و أحسست بالمرارة. هنالك خطأ يفسد صنيعي كله و يجعله عمل لا طائل من وراءه. في البداية خيل إلي أنه الحدبة الخفيفة على ظهري و أيضاً ظننته البثور البيضاء التي تغطي وجهي بين الحين و الآخر و مع مرور الزمن و تراكم المرارات تبين لي أنه شئ خفي, مهما تطلعت إلي المرآة فلن أقع له على أثر و لو استبدلوا الرأس التي بين كتفي برأس نجم لامع فسيظل ذلك الشئ الخفي مقيماً ترشدني إليه تلك المرارة.

في الخارج ساد نشاط غير معهود.عند نواصي الأزقة تكتل الشبان بينما الفتيات في رواح و مجئ لا ينقطعان.الأبواب الموصدة انفتحت على بعضها و ارتفعت نداءات هنا وهناك.

انقضى زمن طويل منذ حفل الزفاف الأخير الذي شهدته الحارة. وصلت السرادق بعد مناورة صغيرة قمت بها لتجنب الشبان فألفيت الكراسي مصفوفة علي جانبي بساط عريض و الثريات الملونة لم تشعل بعد.في الواجهة نهض المسرح الصغير و في الجانب المخصص للرجال شبان يدخنون و يتكلمون. (أنه يخوض حياته كمن يخوض معركة. هاهو الآن يتفقد الميدان و يعد نفسه بالخسارة مقدماً). لم يشجعني منظر الكراسي الفارغة و داخلني القلق من الطريقة التي يلتفون بها حول بعضهم البعض فآثرت الانصراف. (انسحاب تكتيكي لا يقدم و لا يؤخر). ابتعدت عن المنطقة الصاخبة و غصت في الأزقة. في الجانب الآخر بدا الليل كئيباً و خالياً, كنت منقبضاً فأسرعت كأنما أنا هارب (إحساس بالذنب كامن في النفس) عبر الأزقة الصامتة بلا وجهة أعبر بيوتاً يواجه كل منها الآخر كأنما يتحادثان, غير واجد ضالتي في شقوق الحيطان و لا في الجهنمية التي يعزز توهجها بياض النيون و لا في رائحة مياه الغسيل التي غدت جزءاً من الهواء(لديه نزعات برجوازية لأنه يكثرمن التجول و التحاوم حول البيوت التي تتسلق جدرانها أزهار الجهنمية التي يزرعها من لهم بسطة في الرزق و الوقت ليحدثوا بالنعمة التي لديهم.)ابتعدت بما فيه الكفاية فقلت لنفسي أنه ليس هناك ما يدعو للعجلة كما انه لا يهم أن أتريث و لا بأس إن فعلت ما بدا لي. (من شاب طليعي يطارد البهاء تحول إلي سائح في عقر داره منذ السطور الأولى).

بعد انتهاء الأمر بي إلي مكتب صغير وسط ملفات يغطيها الغبار و يعشش فيها العنكبوت تصاعد اهتمامي بإضفاء بعض البهاء على حياتي. (قنوط موظفي الدوائر الحكومية و غير الحكومية يتحول إلي جزء من الروتين حتى عندما يعمل الموظف المدني على سرد الكيفية التي سعى بها للأنفكاك من قبضة الروتين المسبب للقنوط).

حاولت بقدر المستطاع التخلص من ذلك الإحساس العميق بالتعاسة الذي يخيم علي في البيت و المكتب و من محاولاتي القليلة بان لي أنه ليس عملاً سهلاً و مع

ذلك تشبثت بالأمل.(خوره الكبير المتصاعد حتى قبل أن يخطو أي خطوة ينسف كل مقولات المتسكع التي رمى بها إلي جعله بطلاً تراجيدياً يصارع قدره المرير و يتحدى شرطه القاسي). في البداية راقبت ما يدور حولي لعلي استشف منه كيف يضفي الناس بهاءاً على حياتهم. (نية مبيتة للسطو على تجارب الآخرين و طفيلية منخورة). كل ما حولي يغطيه الغبار و نسيج العنكبوت, الطرقات غاصة بالملأ و ساقية الليل و النهار تدور بلا كلل (ما ضره لو قال شادوف ليكون استعان بفولكلوريات منسية), عندما أنام تحاصرني خرائب مأهولة بالأشباح (كيف ينتظر من شخص تزوره الكوابيس و يتكلم عن الأشباح أن يغير العالم) و حين أصحو تحاصرني البنايات العالية (إن هي إلا خمس أو ست بنايات تعبانة و هلكانة في العاصمة الجربانة و هو يضخّم المسائل و البنايات ليبني أوهامه دون تأنيب ضمير و ليوهمنا أنه يواجه أمراً جللاً) و يتقدم الوقت فيغرق العالم في غبار الظهيرة الرمادي (و هل ينتظر من الغبار أن يكون وردياً مثلاً) و تظهر الوجوه المهزومة (قاموس الحرب) لقطعان (قاموس الزريبة) ظلت تغدو و تروح في الممرات المعتمة تحت الضوء الشاحب و الملتهب و تبذل قصارى جهدها منذ الصباح لتقليد أساليب في المشي و الكلام و تبادل النظرات و التحايا هي عصب حياة الفيلم الأمريكي الذي شاهدوه بالأمس. (جهله يحجب عنه أن أفضل طريقة للحصول على البهاء هي محاكاة الأفلام الهوليودية و الحفر عميقاً في طبقات جهله يكشف أنه أكبر مستهلك للحلم الأمريكي و إلا فما الداعي للكلام عن ذلك النجم الذي يحلم برأسه و الذي أطل برأسه منذ البداية؟). ما حالفني النجاح في الوقوع على شيء ذي بال فواظبت على التسكع في الشوارع بلا هدف في الشوارع بعد انتهاء الدوام الرسمي. (في أحسن حالاته لا يزيد عن كونه متطفلاً على موائد لم يعد نفسه لها جيداً) ربما البهاء مختبيء بزقاق ما في زاوية ما (طفولة لا تغادر أحلامها و تمسّكها بتحويل كل شأن إلي دسوسية مزمنة تبدأ باللعب و قد لا تتحمل مسؤولياتها ساعة الجد). في بداية عهدي بالتسكع كنت أضيق به و أقوم به كما يقوم المرء بمهمة شاقة و كمن يتخلص من عبْ ثقيل, و رويداً رويداً تسلل عبق الأصيل إلي حواسي و بت استسلم للمنعطفات و الدروب و الحيطان و ظلالها و الأضواء و لمعتها ناسياً روحي غارقاً حتى أذنيّ في تمليّ الصور الهاربة و الاستثنائية للعالم في لحظات الغروب. (رؤية ضبابية و غياب للمنهجية و استسلام سهل للبروق الخلب و لأول ما يضعه تصورك المسبق عن الشيء في طريقك بدون تمحيص و قراءة ثاقبة لما بين سطور الأزقة و اللمعان الزائف). بعيداً عن المكتب المتداعي قبيل الغروب تكتسي الأشياء جمالاً يشبه يداً خفية تربت علي الجراح.(ألم يخالجه الشعور بأنه قد يكون جمالاً متداعياً هو الآخر؟ ألم يخطر بباله أن الأيدي الخفية لا تتسلل لتربت فقط بل هي في الغالب الأعم تتسلل لتخدّر و تستغل سكر الضحايا اثر التخدير لتسرق و تغتصب و تقتل؟

) أحياناً مع حلول الظلام تسري في جسدي تلك القشعريرة الغامضة و في آخر الليل, بينما جسمي يضج بالتعب و عقلي قد كف عن العمل, أحاول جاهداً بعث ذكرى شيء ذي بال لأجعل منه نقطة انطلاقي في أحد الأيام, و مهما نقّبت فان يومي المنقضي يتبدى بعيداً غائماً مفتتاً كأنه لم يكن, وبين النوم و اليقظة تحوم حولي ذكرى رعشة مبهمة بعثها شيء ما أعرفه و لا أعرفه و أدخل إلي النوم شاعراً بالجرح الخفي و قد استيقظ و في اللحظات الأخيرة من نعاسي أفكر في أن كل نصيبي من الحياة هو رعشة ما, رعشة غامضة أو ذكرى رعشة بعثها شيء حدث اليوم أو أمس أو غداً, هي ما بقي لي و هي ما يشجعني على مواصلة البقاء. (يمكننا أن نلمس وعياً بدائياً و غشيماً بما يحرك وجوده و كل المؤشرات تدل على أنه سيظل بدائياً و ناعساً و لن يتم توظيفه بشكل صحيح).

صحوت من النوم ذات صباح و قد استولت على رغبة حارقة في عدم الذهاب إلي العمل و لا إلي أي مكان يشبه المكان الذي أعمل فيه و الخروج فلا أعود, وقضاء البقية الباقية من عمري كيفما اتفق. (تهرب من المسؤولية و انعدام تام للأهداف). ما زال الوقت باكراً و شرعت أتجول في الأزقة النائمة. بعث النور الرهيف للفجر إحساسا بالطمأنينة جال في جنبات روحي قليلاً ثم مضى. و خيل إلي أنني سمعت صوتاً عذباً يدندن بلحن دافئ فأرهفت سمعي لكنه سرعان ما تلاشي هو الآخر, ظللت أمشي و أتنصت حتى بلغت قلب المدينة. انقضى الفجر و طلعت الشمس. ثم ازدحمت الشوارع كعادتها دائماً, حتى الفتيات الجميلات يذهبن إلي العمل أو ما يشبه العمل. تعثرت و أرهفت السمع. هل هناك صوت يأتي من بعيد حقاً؟ موج المركبات و الناس متلاطم و كلما اجتهدت في الإصغاء كلما ازداد نأياً, ربما فقط أتخيل سماعه ثم أتخيل نأيه ثم أتخيل تلاشيه. أذكر الصباح ساكناً و صافياً مثل بركة في جنينة ثم انتهى عكراً و على كاهله حمل ثقيل. هاهم قد اقتحموه و هلهلوه, هو ذا أشعث أغبر, زائغ النظرة تبحث عنه فلا تجده (أنت وحدك الذي يتوهم ذلك). إذا مددت البصر أبعد من كل هذا الدخان و هذا الغبار فهل أراه؟ كفاية وصول الصوت. وهل هذا صوته؟ و هل كفاية..

(هذا الرجل ضحية لهلوسات يعرف أي طفل غر كيف يتخلص منها و مشكلته انه يصنع منها موضوعاً يستحق تبديد الوقت و الجهد من اجله و بامكاننا مغادرته هنا و تركه متخبطاً في أوهامه لكننا سنكمل متابعة شئونه بغرض فضحها و وضعها بين يدي كل من تسول له نفسه التفكير في الخوض في مثل تلك الأمور و جعلها شيئاً يمكن أن ينتبه الناس إليه و يتعاملوا معه بجدية)

مشيت بتثاقل مفتشاً عن الصوت وسط الضجيج و العجيج. (هكذا ببساطة) بعد طول تنصت تأكد لي تلاشيه. من جديد شبت الحمى و رغبت في الانطلاق. (كان الأولى به أن ينطلق صوب طبيب بل مجموعة أطباء و يضع نفسه بين أيديهم ليعطوه لمحة سريعة عن علله الجسمية و النفسية عله يثوب إلي رشده و يتحول

من منقب عن شيء لا وجود له إلي باحث عن الأدوية و المضادات الحيوية.) تتبعت حركة المركبات و اضطراب الأنام. ركبت حافلة و نظرت من النافذة. وصلت محطة أخرى فرأيت العربات و الناس. ما زالوا يقلدون الفيلم. (وما تقلّد أنت؟) لم يعد للصوت أثر و لم أركن للراحة. جهودي في البحث عن البهاء أو ما يجعل الحياة بهية على الأقل قائمة على قدم و ساق. كل تفكيري يدور حول الأمر. (تفكيرك أعجز من أن يدور لأنه مربوط إلي صخرة من الأوهام الحمقاء) من التسكع و من الاستغراق في التفكير ربما أكون وصلت إلي بعض أطراف الخيوط.لكن الحكاية ليست سهلة و لا بسيطة. (و ماذا كنت تظن؟) في النوم و اليقظة البهاء شغلي الشاغل. تمر بي الأفكار و تتوالى الصور فأحاول تتبعها و تمحيصها بأكبر قدر ممكن من الانتباه و التركيز عسى و لعل و أحيانا كثيرة أصرف انتباهي و أركز تفكيري ليتشبثا بفكرة ما أو صورة لكن الذي يحدث حال توهمي إمساكها و حين يخالجني الشعور بأنها في قبضتي, فإنها تتبخر و تتلاشى كما لو كانت دخاناً. فكرت ذات مرة أن الأمور قد تسير على نحو أفضل إذا طرحت الأمر على من هم حولي. أولئك الذين يقبعون خلف مكاتبهم البرصاء. و لكن لم نسيت أنهم يسخرون مني دون أن أطرح عليهم شيئاً. هم دائماً في ضيق مني و عندما أكون بينهم ينتابني الإحساس بالضيق و الحرج و رغم تظاهرهم بالطيبة و المودة, يلسعني امتعاضهم. كيف سيكون الحال لو تحدثت معهم عن البهاء و ما هو من هذا القبيل؟ سيجدون فرصة مواتية لوضعي في مصح الأمراض العقلية والنفسية (وذلك هو مكانك الصحيح.) الأمر يتعلق بي وحدي و سأمضي فيه إلي نهايته. و هل له نهاية؟ أسألني أين بدايته. و هل أنا من يعرف؟ دعني بالله عليك و لا تسألني عن شيء.

عصرت ذهني في محاولة لتذكر البداية و كيف كانت. يصعب العثور على نقطة يمكن الانطلاق منها. ربما ولد معي. أشياء عديدة تولد مع الواحد و تختبيء و تكمن ثم لا تنبعث إلا في لحظة بعينها. ما الذي بعث حكاية البهاء من مرقدها (الأفضل أن تقول قمقمها أو قبرها) و كيف صارت شغلي الشاغل. (طبعاً الفراغ مع انعدام الطموح و فساد التفكير يمكن أن يؤدي بابن آدم إلي أنواع من الضلال لا يمكن أن تخطر على البال.) و كيف صارت شغلي الشاغل؟ عصرت ذهني فانتهى الأمر بصداع أو قل ابتدأ به. واصلت التفكير رغم الصداع و رغم الأوهام, ربما هناك شيء قوي قد حدث فأخرجها من عرينها. و لكنني لم أعرف أحداثاً قوية البتة. (و لن تعرف.) كثيراً ما أتخيل مغامرات ضخمة أكون طرفاً فيها لكنها جميعاً تنتهي قبل البداية و تتبخر الصور التي أشرع في رسمها و تتبدد. و ما الأشياء القوية في نهاية الأمر؟ أي شيء من الممكن أن يكون قوياً. أشجار الجهنمية و هي مستلقية على حائط تستوقف و تلفت الانتباه, ميدان واسع كان ملعباً طيلة الأصيل ثم أقفر و أتى صوت الآذان من بعيد ليس بالشيء السهل. بنت

عائدة من الجيران مسألة في غاية التشعب و الضخامة. ذات مرة كنت أعبر زقاقاً فانفتح باب و أطل وجه. عينان واسعتان و شعر فاحم و ابتسمت أو خيل إلي أنها ابتسمت. خفضت بصري و حين رفعته كان الوجه قد اختفى و الباب أغلق. عدت في اليوم التالي و أخذت أغدو و أروح في ذلك الزقاق. كررت العملية عدة مرات إلي أن فتح باب و خرجت بنت. اختلست نظرة فخيل إلي إنها فتاة البارحة نفسها و اختلست ثانية لا, لا تشبهها. كانت خلفي فلم ألتفت, الالتفات في بعض ما قرأت أودى بأبطال عظام إلي التهلكة و شرعت في نسج ملامح لها من خيالي. (يتلصص على البنات و لا يملك الجرأة على مخاطبتهن و بعد هذا كله يضع نفسه مع الأبطال العظام في مرتبة واحدة.) حاذتني فعدت إلي اختلاس النظر لكن لم أفلح في البت برأي نهائي (ولن تفلح.) خفضت بصري و بدا لي أنها أسرعت في المشي بل هرولت. ثم أحسست بالخطر وخطر لي أنها الآن في سبيلها إلي استدعاء واحد من ذوي العضلات المفتولة ممن يوسعون الناس ضرباً إذا أفهمته أحداهن أن واحد قد عاكسها. (جبن.) انسحبت و قلت ما هي الفتاة مستحيل فهي ما خرجت من بيت النيون و الورود الحمراء. ثم في أعماقي كان هناك من يقول هي الفتاة عينها و بعد توسعي التسكعي ظللت أمر بذلك الزقاق على فترات متباعدة عل الباب يفتح فيطل الوجه لكن ما من أبواب فتحت و لا أطلت وجوه. و بت أشك في أن الأمر قد وقع فعلاً. أحقاً وقع ذلك؟ (لا تنتظروا شيئاً من شخص يجهل كوعه من بوعه.) العيون الواسعة و تلك النظرة – مع كونها خاطفة و لكنها تترك نقشاً لا يمحى- و النيون و الجهنمية و الغسيل على الحبل, رأيته من فرجة الباب الموارب, ذلك كله لم يحصل. و شرعت في تجنبه فيما نيونه و جهنميته تطاردني و ما أن يشتد وقع المطاردة حتى أتنازل عن تجنبي إياه فأمر به على عجل و لا أطيل النظر مع أنني أرغب في إطالة النظر (و لماذا لا تلقي قصيدة على ما تظنه طللاً) و لا أتباطأ, لأن إحساسا بالخطر يهجم علي عندما أتمهل و دوماً تجدني في خوف اشتباه أحد في أمري و ليس الحال هكذا في ذلك الزقاق فحسب بل في تسكعي برمته. (ليت الناس اشتبهوا بك من بدري و ليتهم جلدوك و أودعوك السجن و المصح, لكن صبراً فهذا سوف يحدث إن عاجلاً أو آجلاً.)

تعقد الأمر و تشربك. أعود بتلك الحصيلة التي تمنعني من النوم يومياً و أنا في غاية الحيرة. حيرتي في كل يوم هي نفسها إزاء الأمور التي وقت و تلك التي لم تقع و الأخرى التي تمنيت وقوعها ولم تقع. و لم العيون الواسعة و الضوء الرهيف قاسم مشترك فيما حصل و ما لم يحصل و ما تمنيت حصوله فلم يحصل؟ إنني واقع و وقعتي عويصة (ما دمت تعرف ذلك فلماذا لا تترك ما أنت فيه.) ثم أنام. و هل هذا نوم؟ و كيف أسميه نوماً إذا كان ذلك داخلاً في النوم أيضاً. و هل هذا كله يحصل و لا يحصل و أتمنى حصوله فلا يحصل بينما أنا نائم, أم عندما

أكون صاحياً؟ صحوت من النوم مرة أخرى و مرة أخرى قلت هذا كله غير مجد, الأحسن الذهاب إلي البداية رأساً. و عصرت ذهني عصراً شديداً في سبيل تذكر المرة الأولى التي شرعت فيها فيما أنا شارع فيه. (ذهنك بحاجة إلي غسيل و إن لم ينفع الغسيل فالعلاج في مبيدات الحشرات.) كل ما أذكره هو إنني كنت أذهب إلي المدرسة و من المدرسة كنت أعود. و بعد المدرسة مكثت عاطلاً زمنا ثم اشتغلت و غدوت أذهب إلي الشغل و أعود من الشغل. أتذكر الآن في المدرسة والشغل أن الشغل شغل. ربما في الطريق إلي المدرسة كانت تخطر لي بعض الأفكار, ليست أفكارا عديدة بل هي رغبة في الانحراف عند مفترق الطرق و التوجه إلي مكان آخر غير المدرسة. (اعتراف بخط اليد يقر فيه المتهم الهارب بنزعاته الإجرامية منذ أيام كان طالباً.) و لكن أتلك هي البداية حقاً, أكانت هناك رغبة في الانحراف حقاً؟ ما أذكره جيداً أن ما بعد المدرسة شبيه بما قبلها و أن لا شيء هناك غير ذلك. أو لا يسمون الحياة مدرسة أحياناً؟ و هي مدرسة على طول الخط. (لكن ماذا تعلمت أنت؟)

هناك دائماً محطة مواصلات و غبار. (ما هي مشكلتك مع الغبار؟ إنك تتكلم كالبيض و أنت أبعد ما تكون عن البياض و أظنك لا تعرف الملابس بالمعنى الذي تعارف الناس عليه ناهيك عن الملابس البيضاء فأمثالك من الغبار أتوا و إلي الغبار يعودون.) و ذلك الصداع كيف أنساه, غدا جزءاً من الرأس. و العطر ربما هو البداية. لا أذكر متى ابتدأ, لكنه متغلغل و مقيم. كل ذلك العطر موجود, أعرفه بطريقة ما لكن ما يحدث غالباً هو أنني لا أذكر أبداً أنني تنسمته بل أذكر دائماً أنني أتذكره. (أمثالك من أبناء الأحياء الفقيرة لا يحق لهم الحديث عن العطور و هذا الافتراء المتعلق بالعطور يدل على حقد طبقي كامن لديك يقسم البشر إلي محتكرين للعطور و آخرين يمضون أعمارهم في محاولة تذكر عطور يظنون أنها داعبت أنوفهم يوماً ما فأنت تجمع إلي ضلالاتك الميل إلي تحريض الناس للعصيان المدني و صدقني ستندم على كل حرف كتبته.) بورود كلمة عطر إلي رأسي يحل و بمجهود أشق من الذي يبذله العابر على حبل معلق أسعى إلي قبضه أو قل استنشاقه. و مهما تحرفنت و تفتحت و تقبضت لا أفلح في اقتناصه و تمريره عبر الفتحات المتاحة إلي حق بالداخل ليقيم هناك أبداً.(أنانية الفقراء) ربما يعرف مدى تلهفي إليه و ولعي به فيظل محتفظاً بالمسافة الجهنمية بينه و بين حواسي, المسافة التي تسمح له بالبقاء في مداي و مع ذلك بعيداً عن المنال و مستحيلاً. (ومن أنت حتى يحصل لك كل هذا و هل جنت العطور حتى تدير ظهرها لربات الخدور لتتربص بصعلوك مثلك؟) ثم صار غاية ما أصبو هو بقاء المسافة على ما هي عليه. و لكن كيف و متى صار ما قد صار؟ ربما لتواضع ما أصبو صار يختفي و يمحى. (أحياناً تعرف قدر نفسك لكن للأسف سرعان ما تنسى نفسك و تصر في الخوض في ما لا قبل لك به.) سوى كان الأمر عائد إليه أم إلي

المسافة, ففي الأحوال جميعها هناك بصيص منه يدل عليه و يبقيه متوهجاً من وراء حجاب و يجعله ماثلاً خلف الضياع و الأختفاءات و المسافات. و بعد نوبة صداع حاد خطر لي الانصراف عن هذه الحكاية و نفض اليد عنها نهائيا. (لا تدعي أنها تطاردك لتعطي لنفسك قيمة و أنا متأكد أن وهم البهاء لو تمكن من الإفلات منك فستبحث لنفسك عن وهم آخر ألعن و أطم منه لتستخدمه للترويج لأفكارك الشيطانية الهدامة المنحرفة.)
قمت بمحاولة أو محاولتين لتغيير أفكاري و أحلامي و ظنوني نحو وجهة أخرى فإذا بها حرة مختارة تتجه ذلك الاتجاه. ما أصعب الفرار منه, لو وددت الهرب من العمل مثلاً لما كلفني ذلك أكثر من عدم الذهاب. في الامكان التخلي عنه دون عناء كتابة استقالة حتى, و لكن هذا الذي تدور أفكاري و أحلامي حوله, هذا الذي تلف في رقصة لا تنتهي يأتي حيث يجدني ماكث و لا يتخلى عني أبداً, كل تنصل و هروب لا يزده إلا تشبثاً. أتى مرة واحدة و يعرف طريقه جيداً, يعرف أين يكمن أتى لا أعرف متى و من ساعتها معي و لن يذهب أبداً. لا يمكن الانفصال عنه بكتابة استقالة أو بعدم الذهاب إلي مكان ما. فهمت, في بادئ الأمر يخيل إليك أنك تطارد شيئاً فتطارده مطاردة شاقة, لهثك مسموع و أنت نائم, تطارد و تطارد بلا هوادة, دونما هدنة, غير عارف ما الذي تطلبه و تجد في طلبه هكذا فينالك التعب و تيأس و تفكر في الاستسلام و التسليم بأن لا نهاية لذلك و لا بداية له فترفع الراية البيضاء(ألا تخاف من الغبار؟) وتشرع في العودة (لم تذكر إلي أين) سالما غير حالم ببعض مغنم فيستنفر هو قواه فإذا بك مطارد غير مسموح له حتى بنعمة شيء من اليأس.
فهمت. لا مفر. وقع الفهم ليس بالأمر الهين. مرة أخرى تأكد لي: بعض المسائل يستحسن أن تظل مجهولة حتى النهاية. من قال ذلك الكلام؟ هل وقعت عليه ذات يوم في واحد من تلك الكتب أو هو بعض ما أهذي به في غيبوبة ما قبل النوم و ما بعد الصحو كل يوم, أم هو مكتوب على الحيطان و يهمس به الضوء هنا وهناك؟ كلام عن المتاهات. متاهات. و لم المتاهات. المتاهات في كل مكان و الناس بها جاهلين و بعضهم يعرف عنها القليل و من القليل الذي عرفه بعض البعض انك إذا عرفتها فأعرفها للتجنبها و من الخير أن تظل بها جاهل حتى النهاية. هذا كله أتذكره و أنا أتسكع بعد فوات النهار و فوات الأوان. أنظر الأشجار في الشوارع و العربات تحت الأشجار. بشر متكئون و آخرون في ذهاب و إياب. غدوت و رحت مثلما يغدون و يروحون ثم اتكأت و مددت بصري. الميدان صخبه يخفت شيئاً فشيئا و تربيتة الغروب تسللت لتقوم بما ظلت تقوم به يومياً. الغسق في الغرب اختلط بالدخان. تربيتة الغروب ما عادت تتقدم بهبتها بالبساطة التي وهبت بها في المرات التي انتبهت فيها إليها. كل شيء لا يفعل فعله بالصورة التي فعلها بها أول مرة. ربما أتخيل ذلك و انتظر من الشيء فعل فعله بالصورة التي تخيلتها أول

مرة, بالصورة التي أريد له أن يفعله بها و الأشياء ماضية في فعل أفعالها بالصورة التي ظلت تفعلها بها من زمان و ستظل تفعلها بها في أزمنة آتية لن أكون فيها موجود, قائماً أو متكئاً, متسكعاً بالقدمين أو بالأفكار هنا وهناك بلا غاية. بلا هدف دائماً و ساعة الغروب يا لساعة الغروب. الظلام يحل و الناس يسرعون كأنما يفرون و مع ذلك هو قائم و يستحق البحث عنه كل هذا العناء.
ربما حل التعب بساحتي و لكن لا يمكنني أن أتوقف و إذا توقفت فما من راحة تنتظرني. الزكام في أنفي و الضجيج في رأسي و أنا بلا وجهة.
(هكذا وضع الشاب مشاغله بين أيدينا و يحق لنا أن نسأله كيف سيكون شكل العالم إذا حذا الناس حذوه؟ ما الذي سيحصل إذا تفرغ الناس لتأمل الظلال و أنفقوا جل وقتهم في التفكير بمسائل لا يعرفون ما هي بالضبط؟ من للحرث و النسل؟ أنه لا يسأل نفسه مثل هذه الأسئلة بل هو يحاول إقحامنا في غي المتاهات اقحاما دونما تدبر أو تفكر. ثم إن الكتب التي تشير إلي بعض المسائل التي تشغله تصدر في طبعات قليلة محدودة و لا يجد أحد من اللذين يقرأونها ما يدعو للتعامل معها بجدية. ما الذي يريده هذا الممسوس الموسوس؟)
قبل تعقد الأمر على هذا النحو المأساوي كنت أخرج رأساً و على بالي البهاء, عارف كم هو صعب المنال و أتخبط هنا و هناك و تجحظ عيني و يفغر فمي و يختل سريان الدم في عروقي (ليته يكف عن السريان) و قبل الاستسلام, قبل السقوط تصل همسة من ظل: استمر, صعب المنال ما هو بالمستحيل و تعزز موقفي بعد طمأنتي نفسي بأن حاجتي و قشعريرتي المرجوة ليست معينة و لا محددة بل هي في الأشياء جميعها, كامنة فيها بصورة ما و كم كنت واهماً (و ستظل كذلك) فما أن يخيل إلي أن الشيء كامن في شيء و ما أن أشرع في التقرب مما و ممن أتوهم أنه مكمنه لالتماس قبس يسير من بركته حتى ينكمش و يتوارى موصداً الأبواب و مراكماً العقبات بيني و بينه. ما من مرة تمددت فيها إلا و انكمشت الأشياء و اكفهرت بوجهي. (معها حق لأنها تحمي نفسها مما تريد أن تلوثها به.) قد أذهب إلي موقع بعينه لظني أن رعشة ما تواتيني هناك, علامة أو إشارة قد تومض فتدل على ما خفي و بعد. أذهب مرتين فثلاث و أعود مغالطاً نفسي هل حلت أم لم تحل أرأيت أم لم أرى و هكذا. ذات مرة و بعد مغالطة عنيفة عدت إلي الموقع الذي غادرته قبل لحيظات. نهار متجهم و بشر غلاظ. أكان نهار أم كان ليل: الظلال و الأشجار والصمت. عدت إلي الزقاق المفضل. ربما لإحساس لديّ بأنه لن يكون فظاً كالبقية. تحت شجرة قبالة منزل واطيء اتكأت ريثما ألتقط أنفاسي و أتدبر حالي. انفتح باب البيت و أطل وجه مرتاب لكهل أشيب. أغلقه ليفتحه ثانية و يتنحنح محذراً. لمحت في عينيه التحديد و الوعيد فابتعدت. الأشجار فقدت شجريتها في هيئة الانتظار. البييتات قصيرة القامات منهكة عليها مسحة من الأسى الصبور و في المناظر ما يشي بالاستعداد للانطلاق لا يحس إلا

من قبل شخص مسكون بالاستعداد ذاته مدفوناً تحت طبقات التعب و الانتظار و التراب. (صدقت, الجميع في توق للانطلاق لكن صوب ما لا يتناسب مع تفكيرك المريض و إمكانياتك المتواضعة.) منهك عيناً و أذناً و أنفاً و قلباً, جميعها لا منهكة, كلها لا تهدأ, في الصحو كما في النوم, منهك و وحيد و الأمور مختلطة عليّ لكن ذلك لن يمنعني من ترقب القشعريرات, من رصد أدق العلامات و الاشارات. أوهى قشعريرة قد تنبعث سأعرف طريقي إليها, أدق علامة تلوح سأتشبث بها حتى الموت. هل ستخرج مني أم من الأشياء أم من كلينا. مالها صامتة و نائمة كأنها ماتت و أنا استجديها. رغم كثرة الألوان يبدو العالم منطفئاً, يبدو رماداً لحريق لم نشارك في إشعاله. طلاء العيد على جدران البيوت بهت و حال لونه و الجهنمية مذرورة أسفل الحوائط الأسمنتية و الكلاب تلهث و تتلفت قلقاً. ربما أتقدم خطوة لو مررت بشارع الفتاة التي ظننت أنها ابتسمت في وجهي. لكن يبدو أنني أضعته.

في الظلام جرجرت ساقيّ. وصلت مسامعي الصرخات التي ما عرفت أبداً من أين تأتي. حين أكون وسط الناس و البيوت أسمعها فأقول أنها قادمة من الخلاء, من الطرف البعيد و من الخرائب المهجورة و مرات يقودني تسكعي إلي هناك فأسمعها و أقول إنها قادمة من الناس و البيوت و لأنها دوماً تأتي من بعيد فهي تصل كما لو كانت همساً. تسكعت حتى ساعة متأخرة من الليل و رغم التعب لم تداخلني أي رغبة في العودة. لم أعود و ما أفتش عنه مختبيء في مكان ما خارج البيت. و سألت نفسي لماذا لم يخطر لي من قبل أن ما يجعل الحياة بهية يمكن أن يكون في ذلك المكان. و أخذت أتذكره كما لو أنني مقيم بأرض بعيدة تفصلني عنه البحار و الجبال. شجرة حناء قصيرة, غرفة صغيرة و قصيرة, و جدار قصير. كتب قليلة أداوم على مطالعتها و تقليب صفحاتها. استبعدت الفكرة و قلت: البهاء يرتبط بأمكنة لا يجوز أن يكون البيت واحداً منها. و الآن أي الأمكنة أرتبط لدي به؟ قبل الأمكنة هناك تلك القشعريرة التي لا أعرف كنهها. في أي الأمكنة تحل بي إذا كانت تحل فعلاً. لا شك في أنها تنتابني بين فينة و الأخرى و لكن ربما أتخيل فقط انتيابها أياي. لكن حتى هذا لا يجب أن يمنعني من المواصلة, فليكن, أتخيل أو لا أتخيل فلا بد أن وراء تخيلي و عدم تخيلي أمكنة بعينها, علامات, هناك زمان بعينه يحمل ذلك كله إلي أو يحملني إليه. أيّك يا أمكنة العالم تبعثينها فيتجدد الدم و الجسد.تحت الجلد و فوقه كأن يداً رءوما تمسح, يد تواسي و تغسل و كأنما ولدت من جديد و العالم ما فيه غير الإضاءة اللطيفة كالنسيم و أنا درويش الموسيقى الصافية, يمتد العشب حيثما أضع قدمي و لا يحط بصري إلا على ما تشتهي الروح و إذ أسبل الجفن تضوع رياض الجنان بالعطر الذي لا أجد ما هو أكثر تآلفاً مع الحواس منه, الحواس التي خدعت كثيرا و أنهكها الغبار و عشش فيها

عنكبوت الانتظار و اليأس و الخوف من انقضاء العمر قبل حلول لحظة هي على هذا النحو من التماسك و الوفاء بالوعد.
لكن هذا لا يعدو كونه مجرد أفكار مضطربة و هلوسات (وينك من بدري) فقد طال تسكعي و اشتد شوقي و اشتعل حنيني. الأبواب مواربة, الأشياء منكمشة و الدروب متشابهة. الانكماش كما يبدو يضمن للأشياء استمراراً أطول في البقاء. (هو لا يعلم أن الأشياء مثل البشر لديها حساسية تجاه المذهلين و المهلوسين و تفضل أن لا تتعامل معهم فتصد عنهم بوجهها. بعد منتصف الليل يحل التعب بي لكن أمل خافت جريح أيضاً يداعبني. (مزيد من الأوهام, يبدو أنها رحلة زادها الأوهام.) الأصوات لا تشبه إلا أصوات ما بعد منتصف الليل و هي تشحذ رغبتي المنكمشة و المطمورة تحت الغبار في العيش كيفما أتفق و السرحان على غير هدي و المشي دونما تحديد وجهة و ترقب مفاجأة في المنعطف المقبل لن تحدث إلي أبد الآبدين. (انتصار متعمد للضلال على الهدى و اتخاذ للضلال كمنهج في الحياة.)بعد منعطف ما ماراً تحت المصباح الذي عبرت ضوءه أنثى ما زالت محاولاتي جارية في تجميع ملامحها التي ضاعت و تشتت في الذاكرة, خطر لي أن العمر قد يمضي على هذا النحو و أنا رائح غاد مؤانساً الأمل الذابل فيما قد تسفر عنه المنعطفات. تمضي الأيام على هذا النحو الذي تمضي عليه و الحذاء تمزق و القلب, و متعباً قد اتكيء على أقرب جدار ثم انزلق إلي الأرض و تجحظ عينيّ لبرهة قصيرة قبل أن أسلم روحي لبارئها ببساطة متناهية و يسدل الستار فكأن شيئاً ما كان, كأن شيئاً لم يكن, و ما هي إلا هنيهة حتى أغدو نسياً منسياً. قبيل النوم غدت تلك الصورة تتسلط علي و بالرجوع إلي ما يدور كنت أراها الأكثر قرباً و صدقاً. مسربلاً بالأسى و الظلام قلت: ذلك سيحدث عاجلاً أو آجلاً و قبل الاختفاء في أقل من لمحة وبخسارة ظل ما تأملته بالصورة التي ينبغي تأمل الظلال بها, ما من عمل سأعمله سوى اقتناص القشعريرات و العلامات اقتناصاً. لأن الموت قد يداهم في أي لحظة فمن الحمق أن لا نبذل كل ما بوسعنا لنموت مدججين بما نذرنا العمر من أجله. كنت أتفكر في الأمر ناظراً إلي النجوم و قلت ما هو إلا كلام يقال على سبيل التخفيف و التشجيع فحتى اللحظة لا أعرف ما البهاء ناهيك عن التدجج به. و هل ينبغي عليّ معرفته؟ ما الذي ينبغي يا ترى؟ و ذهبت إلى النوم. لم يأت فتطلعت إلي السماء. النجوم تتحاور و لليل أصوات يفهم منها الاستغاثة و الهمس و النداء و السخرية من أمر ما و الليل متطاول و سوف لن يأتي ما انتظره فيا ليت النوم يأتي. (رغم إن كل شيء واضح وضوح الشمس لكنه يداور ويناور كأنما هناك من يجبره على التمسك بكل أوهامه التافهة فلا عذر له و علينا أن لا نتسامح معه بان نحاول إيجاد الأعذار له فما دام عقله في رأسه فعليه أن يعرف الطريق إلى خلاصه.)

* * *

حتى اللحظة ليس في الأفق ثمة بارقة و تسكعي يزيد الطين بلة. حقيقة الأمر أنني مبلول من الألف للياء و بوابة البهاء بعيدة و متمنعة و ما من خرائط لترشد و ما من دليل ليقود. سأضع نصب عينيّ أن الوصول إلي الكنوز يستدعي خوض مغامرات استثنائية و أفضل ما يمكنني القيام به جعلي من التسكع مغامرة لا تهدأ.

* * *

تأخرت ذات يوم بقلب المدينة و بقيت حتى الغروب. اتجهت إلي النهر بدلاً من التوجه إلي المحطة حسبما يقتضي المنطق. أنا الموظف الصغير و الذي يحمل عبئا ثقيلاً ماذا أريد من النهر. ما كنت أعلم لكنني اتجهت صوبه بخطوات سريعة. بلغته و جلست على ضفته. أخذت أتأمل الضفة الأخرى. بدت هادئة و وادعة. شيء في لمعة الضوء حسسني بأنني يجب أن أكون هناك. ما أبحث عنه مختبيء وسط أعشاب الشط و كامن في الجروف. أسرعت إلي محطة ركبت منها حافلة عبرت بي إلي الضفة الأخرى.هبطت و اتجهت إلي الموقع الذي كنت أتأمله قبل هنيهة. وقعت عيني على الموقع الذي كنت أتأمل منه الموقع الذي أنا به فلمع الضوء بالنداء ذاته. اسقط في يدي و قمت و قررت قطع المسافة الطويلة إلي البيت راجلاً. تعزيت بأن من ينذر نفسه للبهاء يتعين عليه وطء اشسع مساحة من العالم راجلاً. السيارات العابرة سريعاً, الآلات بكافة أنواعها تسرق من البهائي المساحات الزمكانية الملائمة للبحث و التنقيب و التمعن في الدنيا و أشياءها على نحو يختلف عن الذي درج الناس عليه. المسافة طويلة و التعب يكاد يهلكني. ترنحت و لم أجد أن السبب هو التعب بل خمر ما رضعتها (ربما تكون أرضعتك جنية) من ثدي أمي. تذكرتها و القلق الذي تستقبلني به عندما أعود من سهراتي. اعتادت غيابي الطويل و دائماً أجدها صاحية في انتظاري و القلق يتململ في عينيها. لم تعد تنبهني إلي تدهور صحتي و كانت يومياً تفعل. دعواتها لي من النجاة من عين الحسود و أولاد الحرام انقطعت, لم تنقطع, تحولت من الجهر إلي السر, فقط تتتبعني و أنا أتقلب في الفراش, يتفطر قلبها و أنا داخل, يتمزق و أنا خارج, لا تعرف كم أنا سكران, لا تعرف كيف أنا مسطول, ليس لديها خبر عن الحيطان, عن لمعة العيون و النيون, عن رائحة الليمون, لا تعرف كيف ندخل المتاهات بأقدامنا طائعين مختارين و في التوغل يهدنا التعب فنفتش عن مخرج. (مخرج يا ابن الكلب ومن قال لك أدخل؟) وجوه الفتيات العابرات قالت لي, لحظات الغروب التي ضمنت مقعدها في قصائد الشعراء أغوتني. أولاد الحرام يشتلون الجهنمية فتتسلق قلوبنا و لا تكون طعنتها إلا في الفلذة. يحسدونني على خيبتي يا أماه, يحقدون عليّ بسبب حكاية تجن بمن يسمعها ضحكاً و تضحك و هي تنسج نسجها جناً.

دخلت البيت. وددت لو أشركت أمي في اللعبة. نصف نائمة نصف صاحية تحركت في فراشها وهمهمت. بسملت و حوقلت.لن تفهمني. ترنحت صوب الفراش وعليه

ارتميت. بارد بعض الشيء. السماء بنجومها تحتل الموقع نفسه. أغنية تنبعث من راديو الجيران. موسيقى فصمت. تذكرت صوتاً بعيداً و وجوه تطل من ضفة أخرى و لا أعلم هل كنت نائماً أم صاح عندما جاءت وجوه دنت مني و مدت ألسنتها ساخرةً و صفعتني كف لم أتبين صاحبها و ضج المكان بالضحك و أنا في الصحراء خائر القوى أحبو حيناً و مرات أزحف, و حيناً أتدحرج و الدم ينزف من فمي فأذني و عينيّ و صرخت. انتبهت إلي صرختي و إلي أمي فوق رأسي مرتعبة و واجفة. كله من المكتب اللعين, من الشوارع, من البيوت القصيرة و النهر و ضفته, جميعهم يعملون على إقصاءه و دفنه و محوه. (كله منك أنت) لكنه منقوش بمكان ما لا يطاله الغبار (لا بأس ما دام يطالك أنت) مكان لا يمكن معه أن يمحى, مكان لا أعرفه, فقط أحسه.

*　　　*　　　*

ربما أكون أحمقاً أو مجنوناً, ربما تائه و موهوم و شاذ و غريب (بالله عليك كثر منها) لكن تلك العلامات, ذلك الضوء و الأصوات البعيدة و الصور المختبئة في صور و لا ترى إلا بإدامة النظر, بالتحديق الصبور, الصور التي تغادر الصور و تقيم في ود العين فتبهت ما عداها و تواريه و تتخايل و تتراقص فلا تظهر و لا تسمح لسواها بالظهور, لا يظهر ما عداها إلا كظل مسكين لها, ضائع و لا معنى له.كل ما في الكون, كل ما في حارتنا وفي الشغل و في المدرسة و في المنام والصحو يبدو باهتاً مسكيناً زائفاً و لكنه أيضاً يظهر بمظهر ما يخبئ غيره فيه و أنا بلا هوادة أحدق و أفكر و أجوب الشوارع و أكاد أقتل نفسي بحثاً و تنقيباً عن ما هو غير, أذبح نفسي و أدب مهووساً بك أيها البهاء الصعب, فتنال مني و لا أنال منك, تجدني و لا أجدك, أقع على آثارك, على ما تخلفه في الزمان و المكان فيا لي من شبح يطارد شبحاً. (تظل شبحاً مهرجاً لا يؤبه به)

لو أن أمي لم تلدني لما كان هنالك كل هذا العناء. شبهت نفسي بثور يدور بساقية. (و أنت إلي الجرذان أقرب) يربطون له حزمة علف على رأسه بحيث تكون أمام عينيه, يسرع لينالها فتهرب منه, لا يصدّق أنه لن ينالها لأنها دائماً نصب عينيه. لكن المسألة أكثر تعقيداً من هذا وحدة. الله العليّ أعطانا العقل لنفكر و نتدبر. لسنا عجولاً. لديّ عقلي و عليّ أن أعمله و عليّ مواجهة معضلة البهاء هذي لأنها لن تدعني حتى لو أدرت ظهري لها أو رميت نفسي تحت عجلات قطار. لا بد أن أكون كائناً يفعل شيئاً أكثر من مطاردة صورة شبح غارقة في الضباب.

مهما خبت, مهما قبضت الريح, مها ترامت الصحراء فمضارب خيام البهاء قائمة في مكان ما و تستحق أن أدفع العمر ثمناً لها.

*　　　*　　　*

(ما زال المجنون يراوح مكانه. يصل أحياناً إلي حدود هدم كل ما يبنيه في الهواء ليعود و يتشبث بأهداب الأوهام السخيفة. مشكلته الحقيقية تكمن في تشبثه هذا و

يبدو أنه مصر على القطيعة مع الطرق التي تعوّد الناس على سلكها لأنه يفتقد إلى أبسط المقومات المؤهلة لسلك تلك الطرق. لديه مشاكل عائلية لا ينوي فعل أي شيء حقيقي لتخطيها كما أنه يفتقر إلي الحس الاجتماعي السليم الذي يمكنه أن يضع الإنسان في الطريق الصحيح مهما كانت مشاكله و هو يفتعل حكاية البهاء ليذرّ الرماد في العيون لكننا كحراس للحق و الحقيقة لن نسمح لرماده أن يغرر بالسذج و الطيبين و سنتصدى له و لن ننتظر حتى تلقنه الحياة درسها بل سنتتبع المسيرة الخاسرة إلي نهايتها لنبين أن جميع خطواتها ما هي إلا قفزات طائشة في الظلام.)

*　　　　　*　　　　　*

ذات يوم غادرت البيت أبكر من المعتاد و توجهت إلي الخلاء المهجور و تقرفصت هناك.في الفترة الأخيرة كثر تغيبي و استلمت استيضاحاً و إعلاما بخصم كذا من المرتب. ها هو النهار الطالع يشرع في توزيع الفيالق حسب ما تقتضيه المعركة و يهيئ كشافه الكبير لفضح الأعداء. ما جائزة هذا المسابقة التي أخوضها وحيداً جاهلاً بأصول اللعب و جاهزاً للخسارة. لقد اقتنعت منذ زمن طويل أن الانخراط في الحياة على نحو ما ينخرط الناس فيها باطل و غير موصل للبهاء. ما معنى أن تملأ الكيس جرجيراً و بصلاً و تركض صوب الحافلة و تنتظر المسلسل؟ و في الوقت ذاته كنت أعي وعورة و خطورة الانغماس في مشاغل كالتي أنا منغمس فيها. أعلم أنه أمر مضحك أن يتخلى الواحد عن كل شيء و يهيم على وجهه منقباً عن البهاء. ذلك يدخل في باب الحمق و الجهل و الغشامة. لكنني في قرارة نفسي أجد للحكاية مذاقاً آخر. أعلم أنهم جميعاً ينقبون, كل على طريقته لكن الواحد منهم لا يجرؤ علي جعله شغلاً شاغلاً, الواحد منهم لا يعلم أن البهاء يجعل لك زفيراً و شهيقاً غير الذي يزفره و يشهقه الناس كافة. الناس شغلهم الشاغل جمع الأسلحة و اتخاذ مواقع للتنشين تسمح للواحد أن يصيب و لا يصاب. سيارات بكافة الموديلات, قصور و حمامات سباحة, حدائق في غير موقعها و أربطة عنق لا معنى لها و بمرور الوقت يتبدل عشقهم للبهاء إلي عشق لآلات الحرب و بحثهم عنه الي بحث عن أخس وسائله مطمئنين النفس بأن ذلك غاية ما يحيا الإنسان من أجله.

أعلم أن هذه الغابة الرابضة من حولي و التي يسمونها المدينة قادرة على ابتلاع جهدي الدءوب الصامت في التنقيب, تبتلعه و تبخسه و تسفهه و تقذف به الي التراب (لم لا تقول الغبار) و في اللحظة التي أتخلى فيه عنه, بل في لحظة تخلّيّ عن التفكير فيه بالطريقة التي أداوم على التفكير فيه بها, تفتح ذراعيها لتستقبلني و تضمني الي حرسها الخاص الذي يهيم في شوارعها بثياب رثة و نظرات زائغة و ربما تنجح في حملي على التطوح و الهذيان لأبوح بالسر المقدس كما تفعل المدن جميعاً. تختار ضحاياها من بين أكثر الناس تشبثاً بأهداف الأحلام الصعبة و

الرؤى المستحيلة و تستدرجهم الي فخاخها المنصوبة في كل مكان لتجعلهم عبرة لمن يعتبر.
لكنني كبش حرون, سأعافر حتى النفس الأخير, أنا في طريقي الي الذبح, يجرجروني فأحرن, أصارع حتى تبين مجرتي, أسعى الي خط طريق جديد غير طريق الملاك و الشيطان كل يجرني الي وجهة. كل ما أملكه الآن قشعريرة أخال أنها تشتعل إزاء حالات بعينها, بت واثقاً من كمونها و إذا أفلحت في تأجيجها ربما تخلت الحياة عن ضجيجها و عجيجها و سمحت للصوت بالانسياب الرقيق.
ذهبت الي المكتب و اشتغلت. لم أتبادل كلمات كثيرة مع الباش كاتب الذي استدعاني و أسهب في الحديث. قال إنهم على استعداد لحل المشاكل, فقط على الناس أن يشرحوا ظروفهم و وصفني بأنني رجل في حالي لكنه ألمح الي أنه لا خير في أن يكون الإنسان مسكيناً في هذه الأيام و طلب مني أن أكون ملحلحاً شوية و دنا مني و هو يعرض علي التقدم بطلب سلفية لمساعدتي إذا كانت هناك مشاكل مالية أو إذا كنت أرغب في الزواج. كنت أعلم أن جميع الموظفين قد استنفدوا سلفياتهم و إن هذا الباش كاتب الكهل يحصل على نسبة عن كل سلفية يصادق عليها و هي نسبة لا مناص منها إذا لم يجر الاتفاق عليها قبل التقدم بالطلب فان مصيره يكون الدفن في الأضابير الكالحة, أما إذا تهرب صاحب الطلب من الدفع بعد الاستلام بنية خداع الكهل الأشيب فان شر عظيم سيحل به. استيضاحات و مجالس محاسبة و إنذارات و أحابيل و فخاخ لا يعرف نسجها و تصميمها إلا من أنفق عمره في دهاليز الخدمة المدنية و بات لون الشيب الذي بأعلى هامته, بلون الغبار الذي يغطي الملفات و مناضد الكتابة البرصاء.
كنت كيساً و فطناً في ردي و طلبت من الرجل أن لا يشغل باله فبدا على ملامحه ما يدل على أنه قطع الرجاء من إدراجي في قائمة غير قائمة الحمقى و المغفلين.
سأدع كل الباش كتبة و شأنهم و سأتدبر أمري. أين ألجأ بعد انتهاء الدوام. التسكع تحت الشمس الحامية هدّ حيلي و أنهك صحتي. تجدني نحيلاً, تجدني صامتاً أمشي وحيداً و القميص الوحيد حال لونه و أنا عبد الواحد, لم أقرب الصهباء لأنال تلك القشعريرة و ما انتميت الي طائفة الحشاشين لأنالها لكنها نالت مني بعدما صادفت قلباً خلياً فتمكنت.

و لو أني استطعت خفضت طرفي

فلم أبصر به حتى أراكا

الشوف طشاش لكن عين القلب صاحية, لم تفلح شاشة الغبار الأبدية في حجب طيف الطيف القصي الغامض عنها. صرت أكثر اتئاداً عندما قادتني الخطى الي شارع كثيف الأشجار قليل الضجيج. دائماً في الأمكنة التي من هذا القبيل ينتابني إحساس ما بان أمر ما سيتم. (أسطوانتك المشروخة هذي ما عادت تؤثر فيمن يسمعها). استرجعت دوراتي الحلزونية و دروبي المتعرجة, تخبطي و جهلي و

قلت إن كل ما فات هو تلمس واجف للسبيل, ما ينقصني هو الشجاعة اللازمة للدخول, (ما ينقصك هو العقل) ينبغي الدخول, لكنه طال الطريق, طويل و متفرع, تعترضه الحواجز, تكثر فيه العقبات, و لكن هناك طريقة, منهج, مناهج إذا اتبعها الواحد لهان عناء السفر, لهدأ الطير قليلاً و الآن سأسلك طريقاً. كيف؟
أنني شبه متفرغ للحكاية, لا لست متفرغاً فقط, بل أنا ناذر نفسي لها, مشبوب, متعلق هي طعامي و شرابي و مقامي و روضتي فمن لي بما يضعني على أول الطريق المؤدي الي هناك. كل مرة علي أنا أبدأها من جديد. (وستظل هكذا لا تعرف رأسك من رجليك). من أين أبدأها هذه المرة؟
كان الليل قد أقبل و بلغت ضاحيتنا فوصلني صوت مغني. هناك حفل. سأبدأها من هناك.
حفل كبير. سرادق تسد زقاقاً ضيقاً. ثريات ملونة و ألوان تزقزق. حسرة قليلة تخزني لكوني متطفل. (و هل كنت يوماً شيئاً غير ذلك.) لكن ما أهمية ذلك و قرن استشعار البهاء قد دبت فيه الحياة بعد طول سبات. (الكائنات الضيئلة التي تعتمد علي قرون الاستشعار و التي تعيش على البقايا تتوارى منك خجلاً.) بساط أحمر يغطي الأرض و كالعادة قسم للنساء و قسم للرجال. قسمة قلما يكون الالتزام بها جاداً. (لكنها ضرورية لردع من هم مثلك.) لم يصعد العازفون الي المسرح بعد, النفخ في أجهزة التكبير و العطر الفخيم الذي حام طيفه برهة أنعش الإحساس القديم المتجدد أن البهاء ما هو مستحيل.
و ماذا بعد. بعد قليل سيتتابعن في أهاب الحمام, في أهاب الطواويس, في عباءة الملاك و تحتها إبليس. كنت عند المدخل عندما بدأ انسيابهن. أفسحت الطريق للفوج الأول و ضاعف تضوعهن بالعطور الي جانب أناقتهن و لمعانهن من شعوري بالبهدلة فتواريت, بحثت لنفسي عن موقع يصلح برجاً للمراقبة, استقبل منه الشفرات. اخترت موقعاً في مؤخرة السرادق لكن جاء شبان فحجبوا المشهد فأخذت أفكر في الوقت الذي قضينه في الحمام, في تصفيف الشعر, في وضع اللمسات الأخيرة و في المرايا التي انعكست عليها صورهن. و غيرت موقعي و كن قد شرعن في اتخاذ مواقعهن, بعضهن يجلس جلسة الكابتن في مقصورته. و بعضهن يقعي كما يقعي المحارب خلف مدفعه و كلهن جميعهن بلا استثناء مثقلات بالسر الكبير المكشوف, لا يعرفن ما يفعلنه به و لا ما هو فاعل بهن. لكن هذه جميعاً تأملات فارغة (و هل عندك غيرها) و علي أن أدخل في الموضوع. الموضوع هو القشعريرة و أنا هنا لأجرب حظي لأرى ما إذا كانت القشعريرة ستنتابني أم لا. و هب أنها أنتابتني, ماذا بعد؟ هذا سابق لأوانه, فلأدعها تنتابني أولاً. كيف و هؤلاء الشبان المتوترين يجدون لذة كبيرة في حجب المشهد عن ناظري. لا بأس, سأغير موقعي و أري ما يمكن أن يحدث. قضيت ليلتي تلك متنقلاً من موقع إلى موقع. هل أشبه الفراشة. لا يحق لي. الأقرب الي الواقع أنني

كالسجين في الزنزانة. المكان ضيق, الحركة عسيرة, و الطاقة الصغيرة لا تسمح بمشاهدة العالم إلا بمقدار و هو المقدار الذي تريد لي هي أن أشاهده لا ذاك الذي أجدّ في طلبه. تعرف إن العالم واسع, بل أنه في خيالك, في أوهامك يزداد اتساعاً بسبب الجزء الصغير القليل المبهم المسموح لك برؤيته. الشاب الذي جاء و أحتل الموقع قبالتي ألا يشبه قميصه الكاروهات بخطوطه المتقاطعة القضبان. لماذا أسبّه و هو متطفل مثلي كله توق و شوق للمشاهدة و التحديق من نافذة قد تطل على ما تبحث عنه الروح. الجميع يحاولون الحصول على أكبر قدر من الصور و الأصوات و العطور في هذا المستطيل المسيج بقماش سميك مثبت على أعمدة حديدية. و اتخذت قراري و أنا أتأمل الثريات و أشبّ على أطرافي (الأربع) حتى ألمح وجهاً مشرقاً و باسماً. هذا المربع الذي يسمونه الصيوان سيكون مكاني الأثير, جسراً أعبر منه إلى البهاء, لن يدعوني أحد (و هل كنت تنتظر أن يدعوك أحد يا مغفل) لكنني سأحضر حفلات الأعراس التي لا تخلو منها الحارات و الأزقة, سأطارد تجليات البهاء حتى و لو حبواً, سأزحف على بطني إذا استدعى الأمر.

مضت الليلة على نحو ما تمضي ليالي الأعراس. أطلقوا أعيرة نارية في الهواء و تعارك شابان تفجر الدم من جبين أحدهما. مضى الليل و تسلل التعب الي رقص الراقصين و الي عزف العازفين. لماذا يشبه الناس في حفلات الأعراس وحوشاً ضارية و لم تشبه بعض الفتيات غزلان الوديان. لم حلمي يخنقه الغبار, و لا ينام, لم يبدو مضحكاً و مستحيلاً متشبثاً بأخمص قلبي و لا يدعني لحالي. انتهى الحفل فتدافع أهل العريس الي البص و في الظلام شاهدت فتاة في زى أبيض محلى بالأسود, ليست في عجلة من أمرها كالأخريات, مشت الهوينى, مشت بتؤدة و تسارع نبضي حين خيل الي أنها خصت الموقع الذي أحتمي به بنظرة.

أمضيت بقية الليل متجولاً. طيف في زى أبيض و أسود يتخايل ازائي. لم أكن أطارده و هو لا يتعمد الظهور. كانت حياتي جافة و قاسية ثم صارت أقسى منذ ذلك الحين. الشوق يحرقني, و الوجد يفتك بي, و العشق يضنيني. الأجرام السماوية تتلاصف و الأرض محتشدة بالبيوت القصيرة النائمة.

* * *

بت جوالة و مستكشفاً لا يفوت حفلاً. يحمل الهواء نقرات الطبول و نوح الكمان فاسترشد بهما و أتبعهما. كأنما تلك السرادقات تنصب من أجلي و كأنما ما ينتظرني يفوق نصيب العريس في ليلته و ارتجاف قلب العروس في ليلتها. أخبّ إلي تلك الساحات مختلساً الخلس. رغم المرض و الفلس, و رغم النصب فهناك خلايا لم تمت, لم يفلح الغبار في ردمها.

و كان للتعلق ببيوت الأفراح أثر طيب عليّ فشرعت أطمئن روحي و أقول لها إن البهاء قد شرع في النزول من السماء الي الأرض. (من سخريات القدر أن

يتحدث أبن الأسافل هذا عن العوالم العلوية.) ها هو يتمثل في الطيف, يتمثل في ومضة خاطفة لدبلة بنت عجولة تعبر الليل صوب الليل. و ماذا هناك أيضاً؟ هناك السينما و سأضع خطة بشأنها و لن أدع لحظة من عمري تضيع هباء.
و مع ذلك, في قرارة نفسي كنت غير مقتنع, غير راض (لأن ما يحركك هو الوسواس الخناس) لا يمكن حصر البهاء في أشياء قليلة و مستهلكة و محاصرة. لكنني كنت أعود فأقول أنني على مشارف الهلاك, عند حافة الليل, أتخبط في صحراء العيش المترامية الأطراف, بلا زاد (سوى الأوهام طبعاً) فتك بي الظمأ, جرعة من الماء الآسن خير من لا شيء, رشفة صغيرة, (ها قد بدأت التنازلات حتى قبل بدء المعركة) و حتى إذا مضيت, ذهبت, مت, الأشجار و المروج التي لم أرها سيظل شبحي عزيزاً عليها, و البنت التي أحببتها و لا أعرف من هي و لا تعرف من أنا ستذكرني بالخير, و الليل صديقي اللدود, ثوب حداد يليق بدأبي الملتاث.
ذات ليلة و بعد حفل أخذت اتسكع بلا هدف. ضوء كليل ينبعث من مصباح عال. كان عذباً و خالي البال. شخص خالي الوفاض مثلي (و فارغ) تؤنس وحشته الأضواء الخافتة و الصمت الجليل. ما صاحت الديكة بعد و المزيفون هامدون في أسرتهم و البركة صافية و آمنة مستسلمة لقدرها المنتظر. أنا الوحيد الذي يعرف أن المصابيح تتعب و تنعس. (يا له من اكتشاف سيغير مجرى التاريخ) في كل مدن العالم ينسون مصابيح الأرصفة و يتركونها وحيدة تغالب النعاس و دموعها. (ليتك تذهب و تنام و تترك العالم في حاله.) و مصباح آخر بعيد أخذ نوره يخفت و يتلاشى قليلاً قليلاً ثم عاد كليلاً و ناحلاً.
يمضي العمر و قد يشتعل الرأس شيباً من حفلة الي أخرى.

* * *

و أخيراً جاءت تلك القشعريرة أو ما يشبهها.
تبدو نائية رغم أن وقتاً قصيراً قد مر. عباراتها ظلت جميلة و براقة كأنها تقال في كل لحظة, مع أن العبارات تموت حال خروجها. وظللت محموماً أهذي بها و أبحث عنها و لا أجدها. أين يمكن أن أعثر عليها وسط كل هذه الأزقة المتشابهة و خلف أي الأبواب يختبيء النور. أبطأت و سألت المصباح: هل هذا هو بيتها؟ أم هو ذاك. ربما الذي تغمر أشجاره أضواء النيون, و ربما الذي تتلألأ بأعلى سوره أشجار الجهنمية الحمراء و ربما هي من منطقة أخرى. أمبدة أو حلة حمد أو الملازمين أو الديوم. و هل يعقل أنها من الرياض؟
من يقدم لي الحياة في صحن واحد؟ كوكتيل حياة و في القارورة المصاحبة أكسير السعد. مررت بالزقاق حيث سدت سرادق ضخمة الآفاق و تلاقى العشاق و انهمرت الأشواق و ضاعت مني المدرسة الفلسفية التي ألقت بي في هذه المتاهة, هل هي المدرسة الكلبية التي أسس لها أبناء الكلب أم هل هي الرواقية التي أسس

لها أبناء الرواق و كانت لواعج قلبي تخاطب تصوراتي العقلية بلغة الواق واق و الترجمان كان مسطولاً فهل كان ذلك بعد شهر, شهرين, شهور عديدة, قرون من الحضارة و العوارة. المهم في الأمر أن الزينات كانت تتراقص و الناس و المساحة المعهودة مزخرفة و مزركشة بمزاج بهائي يكاد ينقرض الى درجة أنني كنت أسمع حوار اللون و الضوء. استبشرت خيرا و اخترت موضعاً بدا أنه ملائم فما كان إلا أن حجب أحدهم الصور عني. قميصه المخطط يشبه القضبان. لست بغضبان لأنني أصلاً سجين و حزني دفين. كان الحجب قد تم حين وقع بصري على وجه أنثوي متفائل. لم تتح لي الفرصة لتأمله كما ينبغي فتذكرت وجوهاً كثيرة لا أرها لكنها ماثلة في ذاكرتي. وجوه أنثوية, فتيات في ريعان الشباب مشاريع كائنات منتجة للبهاء و مصدرة له, بنات مدارس, طالبات في الجامعة و فتيات أتوستوب. و هل يصعب أن الواحدة طالبة في الجامعة و فتاة أوتوستوب في الأوان ذاته؟ ما هذا هو لب الموضوع, الموضوع هو أن وجوه الإناث نوافذ مشرعة على البهاء, فإذا ما عثرت على وجه أنثوي و لاحت سانحة لتأمله كما ينبغي تأمل الوجوه حين تسنح السوانح و تلوح اللوائح فان فتحاً عظيماً يكون قد تم و يكون موضوعي الغامض قد وقع على أهم مبرراته. (هكذا تتكشف أوراقه و يفتضح مخططه. كل هذا اللف و الدوران هو من أجل أنثى. لماذا لم يذكر ذلك من البداية لعله يجد من يتعاطف معه و يمد له يد العون.)

راوغت و غادرت الموقع للتخلص من الطموش و كنت متسامحاً فلم ألعن الكاروهات. كنت متجهاً إلي موقع لا تسد فيه قضبان الكاروهات الأفق علي عندما استوقفني شاب متأنق. كان وليد و كنت أجلس إلي جواره طيلة سنوات الدراسة و لم أفلح في تجنبه و الهروب منه. لفحني العطر القوي و رددت على ابتسامة الترحيب بمحاولة ابتسام فاشلة. بعد حوار قصير قال لي تعال أعرفك على خطيبتي.ذهبنا و بعد قطع نصف المسافة في الاتجاه الى الجزء المخصص لهن ترددت و كدت أنكص على عقبيّ لولا أن وليد وضع يده على كتفي و طفق يثرثر بحبور.

خمس أو ست فتيات و لم يجد وليد صعوبة كبيرة في التحدث معهن. حافظ على الابتسامة ببراعة كبيرة و استند على كرسي و أشعل سيجارة بقداحة ذهبية و بدا مهتماً بقصة تسردها واحدة سمراء و بدا كأنه نسيني. خفت من رفع بصري فبالغت في خفضه و النظرة الخاطفة لم تسعفني في شيء عدا التقاط ملامح مشوشة كالتي التي تكون للوجوه في الحلم. لم أرفع بصري و لكنني أعملت ذهني بغية تجميع تلك الملامح.

أخذت أتذكرهن و كأنهن غير موجودات, لا نائيات, بل العدم الذي تستدرج منه الأحلام, ويستدرجنا إليه بهن. عصرت ذهني عصراً في سبل التقاط التفاصيل الدقيقة التي لم تمكني النظرة الخاطفة من الوقوف عندها. لعنت وليد و ظللت

مطرقاً. و بينما أنا على ذلك الحال, سرت في أعضائي رعدة كالتي تحدثها صعقة الكهرباء. حدث ذلك حين سمعت ضحكاً مكتوما و خيل إلي أن أحداهن سألت وليد شيئاً فنطق باسمي. (تحليل هذا الموقف يكشف مدى تهافته و تناقضه فبعد كل ذلك الكلام الذي صدع به رؤوسنا عن البهاء و ما يتعلق به و بعد كل تلك اللهفة التي أبداها و هو يتغنى بالبهاء ها هو يرسب لدى أول امتحان حقيقي و يعجز عن استثمار الموقف بطريقة تخدم قضيته و يدعي الحياء.) تجمعت على نفسي و حبست أنفاسي و أنا أحس أن هناك نظرات مستفهمة مسددة صوبي. صمتوا ثانية فتثاقلت أنفاسي و بردت أطرافي و عندما عادوا للحديث مرة أخرى تشجعت و رفعت بصري لكن بعد فوات الأوان فالنظرة التي خصصت بها تحولت عني و المس الذي أجج القشعريرة صمت. عندما صمتوا مرة أخرى بدا العالم أضيق من ثقب الإبرة (و يا ما حيضيق كمان و كمان). أشعل وليد سيجارة أخرى. فجأة مسني الشيء المدعو ذلك الشيء. يمسني حين أظن أن فتاة تفكر بي أو تنظر إلي. (عليك اللعنات المتتاليات الساحقات الماحقات يا زعيم الحمقى و المغفلين الدراويش المساطيل فقد مللنا مما تحسه و تظنه و لا تكتفي بربط حياتك إلي صخرته بل تحاول جر آخرين معك.)ذلك الشيء هو الذي دعاني على التردد على ذلك الزقاق و تأمل حوائطه و زهوره البهيجة النائمة. رفعت بصري مبالغاً في الحذر فكفوا عن اللغط. ما من واحدة تنظر ناحيتي (و ماذا كنت تظن يا دون جوان العصر)و غير ممكن تحديد الى ماذا ينظرن و بماذا يفكرن فتفرست وجوههن فظهرن بهيئة مغايرة عن التي رسمتها لهن في خيالي و أنا مطرق و استغربت من شجاعة الفجأة (الفجة) التي حلت بي (اعتراف بالجبن يضاف إلي الاعترافات الأخرى التي تقوض بنائه المتهالك من أساسه) و التي جعلتني أجول بالبصر و أطوف به في حديقة الوجوه النضيرة تلك لأكثر من دقيقة لا يطرف لي فيها جفن, لكن عندما خاطب واليد أحداهن فانتفضت ضاحكة رثيت لحالي و عدت إلي الإطراق و تنامي لدي الإحساس بان الذي يفصلني عنهن ليس هو هذا الإطراق بل مسافات تعج بالطرق المتشعبة.

* * *

عندما آويت إلي الفراش حاولت استرجاع الذي كان. من صاحبة السؤال, من؟ أهي السمراء, أم التي تحيط جبينها بالطوق الذهبي المضفر؟ ربما التي جعلت شعرها على هيئة ذيل حصان جموح, و لم لا تكون التي تنظر للناس و الأشياء بقعر عينها؟ استغفر الله فهذه ملكة. والتي يظهر و كأنها سارحة في عالم آخر, هل يعقل أنها همست بجملة نعناعية المذاق كنت بطلها بعد نطق وليد باسمي. (و من أين لك بالنعناع يا من تخاف من البصل و الجرجير؟)

بت على يقين من أن واحدة من الفتيات عملت على زحزحة الأشياء من مواقعها المعهودة و أنني دنوت من البهاء لكن الإطراق أضاع فرصة النجاة النادرة. لكن

شكوك و ظنون نهضت لتدحض الظن الحسن في أن البهاء بعث لي برسالة في ذلك الحفل. كأنه لم يمسني شيء و كأن المسألة كلها خيال في خيال و أضغاث أحلام يعرفها المتضورون جوعاً للومضات و المنطوون على أنفسهم في انتظار الفرج. ماذا لو أن ما قيل قد قيل على سبيل التندر و السخرية؟ أو لم يعقب الهمس ضحك من ذلك النوع الذي يطلقه الناس بتلذذ عندما يقع في قبضتهم شخص تائه و يبالغ في التمسك بسلوك لا يليق بالمقام. (اعترافات بالكوم لن تشفع له عندما تحين ساعة الحساب.) لكن بهجتي بالرعشة كان أقوى من الظنون و هم حتى إذا قصدوا التندر فقد منحوني رعشة ثمينة أقضي في انتظارها الساعات و الأيام و هي لا تسري في الجسد كل يوم, و هم معذورين فمن أين لهم أن يعرفوا أنني أسعى إلي جعل كل مقام معبد للبهاء.

صعد العازفون إلي المسرح و ابتدأت الوصلة الثانية. ابتعدت عن وليد و افترقنا.
منذ تلك الليلة بات تسكعي مكرساً للبحث عن الدار التي يمكن أنها تأوي تلك البنت و لم أكن أعرف كيف سأهتدي إليها و لا ما أنا فاعل إذا ما اهتديت. و أيضاً لم انقطع عن المرور على السرادقات حيث تحجب القضبان الأفق.

(نحن الآن نتتبع الخطوات المتعثرة لما يمكن وصفه بأسوأ و أغرب مشروع إنساني عرفه التاريخ على الإطلاق. مشروع لا يملك صاحبه من العتاد سوى قدرته على إقناع نفسه أنه يتصدى للقيام بمهمة جليلة تقتضي منه الاستخفاف بما تعارف الناس عليه من أساليب لخوض تجارب الحب و النجاح الاجتماعي و تطوير حياتهم نحو الأفضل و خطورة هذا الرجل أن النزعات الإجرامية قد تقوى على جبنه الطبيعي و تلك النزعات قد تحمله الى ارتكاب حماقات مثل الاغتصاب بحجة الحصول على القشعريرة أو ترويج المخدرات بحجة تسويق القشعريرة و كونوا كما نحن بالمرصاد لحركاته و سكناته لإيقافه عند حده إذا استدعى الأمر.)

هاأنذا أتجول. (تجول كما يحلو لك لكن إياك و الحماقات) و هذا زقاق آخر. إلي متى سأمشي و إلام تلتهمني الأزقة و السرادقات؟ لا أعرف لكنني سأمشي و أمشي و حين أعثر على سرادق أتسلل إليه, أو أن تسري القشعريرة في دمي بزقاق ما, قبالة بيت ما لأعرف أنه زقاقها و أنه بيتها لأتحاور مع لمعة الضوء و أشرع حواسي لعطرها السري. لو هي السمراء, هل أكون حكاية من حكاياتها الآن؟ و لو هي التي تنظر للناس و الأشياء بقعر عينها فهي تفكر في شراء بدلة و ساعة ذهبية حتى أليق بها و لو أنها فتاة الطوق الذهبي فلا محالة أنها تحتضن وسادة الآن.. وماذا لو إنها لا أحد؟

*   *   *

كثر تطفلي على سرادقات الأعراس و تعذر علي العثور على وجه البنت التي بثت القشعريرة في دمي بنظرتها و كلماتها الموجزة. نال التعب مني ما نال فأخذت ألوم نفسي على الإفراط و التفريط اللذان يلازمان سكناتي و حركاتي. ما هكذا

يجب أن يعيش أبن آدم. (و لكنك إلي ابن آوى أقرب). علي أن انظر حولي و أتعلم منهم. (فاتك القطار من زمان) ما هكذا يكون التشبث في أمر مشكوك في أمره, ما هكذا يكون البحث عن ما لا أسم له و لا رسم (ألم تذكر قبل الآن أنك أنت من يسميه و يرسم ملامحه. النقش على الماء هو ما تحترفه يا ضال و أتحداك أن تتهجي وجهاً مما رسمته و ترسمه كل يوم) ها هي السرادقات تخذلني و تمد لسانها لي. البنات بطلات المهرجان لا يهمهن أن تنبعث في جسدك و روحك قشعريرة تتعلق بالبهاء بل يسعين الى تمضية وقت جميل و يبحثن عن عرسان و يعرضن التقليعات الجديدة في تصفيف الشعر و الالتفات. لا مكان لي هناك. ليس في هيئتي ما يلفت النظر. لكي أكون واحداً من موضوعات الالتفات على بالموضة و إذا ما رغبت في المشاركة بصورة فعالة فلا أقل من بنطلون أدوين أصلي و سترة مبطنة مثنية الكفين وحذاء دوقلاس لامع كأنف الكلب و ولاعة ذهبية و علبة تبغ مارلبورو ذلكم هو عتاد الحرب الدائرة و إلا فلا مكان لي سوى الصفوف الخلفية حيث القمصان الباهتة تصعد إلي الكراسي و تتفرج على الطواويس التي تفرد ريشها في الساحة.

لكن البهاء موجود و هو يختبيء بمكان قريب. لئن خذلتني السرادق فالعالم واسع. من بعيد يحمل الهواء صوت المغني. كم هو جميل من على البعد. و صرت أكتفي بتلقي ما يحمله الهواء من أصداء الحفلات و أتعزى بأن البنت التي يعنيها الأمر سعيدة و راضية. أن تكون البنت التي تظن أنها تفكر فيك سعيدة و راضية أمر لا يفسد البهاء بل يدعمه و يقربه و يخرج بحلم الانغمار فيه كلية من دائرة المستحيل.

و لكن بالله عليك ما هو البهاء؟!

و لكن هذا ليس سؤالاً. لكن لا بأس من محاولة الإجابة. أنني أعرفه و لا أعرفه. و هو لا يقل في شيء عن شراب الحكمة الذي كان بعض الناس يجوبون أصقاع الأرض طلباً له و فيه من صفات الأنثى اللعوب و العذراء المسربلة بالحياء و الطفل النزق ما يغيب الكثير من ملامحه و الأفضل أن لا تسألني عنه و أن تشاركني لعبة البحث التعيسة فلب الموضوع هو البحث لا تحديد صفاته و أصله و فصله.

و لكن أين و كيف؟

لقد جربت التسكع المجاني فتجرعت مقالب العالم غير الآبه بي, المعتد بنفسه و الصريح و الواضح في التعامل مع الأجسام الغريبة التي تعيش فيه و تزعجه و القادر على سحقها بمألوفيته و قالبيته و اقناعيته الفذة بأن جهد ابن آدم يجب أن ينصب في سلك تلك الدروب المعبدة و ترك المجهولة غير المعبدة و شأنها. وجربت السرادقات فمدت لسانها لي و هي الآن تغازلني من بعيد و تستدرجني الى مقالب جديدة و جربت...

ماذا جربت, أنني لم أفعل شيئاً و أنا تائه و كان الله في عوني.

*　*　*

ذهبت الى السينما و أنا يائس من الخروج من هذا المأزق الذي أدخلت نفسي فيه. (يداك أوكتاه و فوك نفخ)أريد أن أنسى الآن لأن صورتي في المرآة ما بشرتني خيراً و كشفت لي انسراب العمر خلف السراب و هذه المرآة الكبيرة ازائي في الظلام تحكي قصة شاب يطارد عصابة قتلت أمه و اختطفت محبوبته.

لا يحتوي الفيلم على كلام كثير, حوارات مقتضبة و طلقات نارية و موسيقى تجلجل أحياناً و تنساب أحياناً لصنع اللغة المناسبة للأجواء التي يتحرك فيها البطل. غادرت دار العرض و موسيقى المشاهد الأخيرة تملأ رأسي. التي صاحبت تربص الأعداء بالبطل حشدت الجو بخناجر مسمومة و تكشيرة أنياب دامية. موسيقى اكتشافه لاختطاف محبوبته تصدعات خفية تفعل فعلها في مبنى موثوق من متانته و قدرته على الصمود فخان الثقة. ثم أخيراً هناك التي حملت الفتى إلي فتاته. كان قد جاب المدن و تشرد في الطرقات, سأل الأشجار و الأحجار و الأبواب الموصدة عنها إلي نهاية المطاف عند الشجرة التي التقى عندها بها أول مرة و ظل يلتقي تحتها بها في كل مرة. تهادى طيفها في البعيد و الموسيقى تهدهده و تدفعه مثل موجة لا عمل لها سوى إنقاذ من أوشكوا على الغرق من الغرق. احتبست الأنفاس و آخرون صفروا منبهين إياه و مهنئين. لم يخدش الصفير المتعالي صفاء اللحن المنساب و تلمست طريقي في الظلام و في المشوار القصير صوب المخرج أخذت تخفت و تنأى لكنها تفانت في إذكاء الأمل بقدرتها على الانقاذ و النفاذ و باتت في خفوتها الناعس أشد وقعاً حتى عقب مغادرتي و توغلي في الظلام الصامت و صحبتني طيلة الليل.

سخطت على نفسي و تبرمت مما حولي (منذ أن قدمت لنا نفسك و أنت لا تفعل إلا ذلك) و قلت إن كل ما له شأن لا يتم إلا مصحوباً بالموسيقى فأين أنا من ذلك؟ ربما هناك لحن فريد يخصني و لا يجد سبيله إلي و ربما ينتظر أن أجد سبيلي إليه. تمعنت في الفكرة و أدرتها في ذهني. و لم لا. ليس ربما بل أكيد, هناك موسيقى مختبئة كامنة و نائية, هي زاد رحلة البهاء و منذ اللحظة و التو ينبغي تكريس الجهد كله للكشف عنها و استخراجها الدنو منها و التشبث بها و جعلها المعادل البهائي لوجودي. ظللت أجوب الشوارع النائمة متأملاً المصابيح و ظلال الليل. النجوم تتغامز. أتراها تشجعني أم تراها تتآمر. و من أين لي بها و أنا مهمل و منبوذ و لا أجد سبيلاً للتوافق مع هذا العالم و هو لا يرحم و لا يهادن و لا يسمح لي بغير أن أكون على هواه.

لكن هواي هو البهاء و علي الاستمرار.

انقطعت عن العمل و بت شديد الانشغال بهاجس تلك الموسيقى. لا أطلب لحياتي أن تكون مثل حياة أولئك الأبطال (ذلك ما تتمناه و لا تعرف كيف يتحقق) لكن

هناك حركة لو قمت بها ستنبعث الموسيقى على إثرها لتملأ كياني و تتدفق منه إلي العالم كله لكنني لا أعرف ما هي.

قادني التجول إلي السوق فانغمرت في ضجيجه و عجيجه. الأسواق هي السبب في ضياع الموسيقى و دفنها. لو أنني أشعلت حريقاً كبيراً فربما تخرج من القمقم الذي حبسوها فيه. (انتبهوا فقد بدأت النزعات العدوانية تطل برأسها و تزين للمجرم أن التدمير هو أقصر الطرق المؤدية إلي الوصول إلي الأهداف الرخيصة) الطماطم في كل مكان و الناس في عجلة من أمرهم. وجوه متعبة تمر. الأكياس مدلدلة و مناكبهم متهدمة. صرفت النظر عن الحريق فلا بد أن هناك أبرياء لا يجدون سبيلاً الى إثبات براءتهم. (لا تحاول توريط أبرياء معك فهذا لن يشفع لك) لكن لا بد من الموسيقى و إن طال السفر. (بل قل لا بد من الهزيمة و إن طال العيش في الوهم)ستكون أول الغيث في سيل البهاء الذي سيغسل عن العالم أدرانه. ماذا أنا فاعل الآن؟ (ما زلت لا تعرف طظ من سبحان الله و مع ذلك تتشدق بالنظريات المنكرة) أنا ذاهب الى الجسر. سأصعد و أتكيء على السياج و أنظر الغروب. (يا ولد يا رومانسي) الشمس أرجوانية و تتهيأ للغطس في بحر لجي ناعس. الغبار آخذ في الانحسار و المبنى الضخم على الضفة أشعلت أنواره. يميناً بعد السجن (الذي هو واحد من النهايات المفتوحة لمن هم مثلك) و الإسفلت عمارات الحي الإفرنجي. (هناك يعيش أناس يحكمون العقل و هو شيء مجهول بالنسبة لك و نصيبك منه أقل من صفر) ظهر طيف خلف أحدى النوافذ. ثابتة ظلت و فكرت في أنها تتأمل الجسر و الشخص الواقف هناك يتأمل. غير ممكن التأكد من هل هي أنثى أم ذكر لكنني أحببت النظر إليها بوصفها أنثى لن تعرف أبداً أنني متورط بالبهاء. أكتمل الظلام و لمع النهر و مرت سيارة فخمة بزجاج مظلل و خلف الزجاج تراءى طيف أنثى مستريحة على المقعد الخلفي. خلف كل زجاج مظلل أنثى مستريحة و ساهمة. (تتجلى خطورته في رصده لمظاهر النعمة و كأنها أشياء لا تهمه و لا يسعى للحصول عليها بينما لعابه يسيل لها و عيناه تقطران حسداً و هو يرى الناجحين و المتفوقين يستمتعون بحياتهم بعيداً عن التعقيد و الهلوسة و افتعال قضايا و اهتمامات لا يمكن تواجدها إلا في عقول مريضة و هي تمتد من تلك العقول وتحاول الالتفاف حول الأشياء لتخنقها و لكنها بحول الله لن تلتف إلا حول أعناق من خرجت من رؤوسهم.)

ثم غادرت الجسر و المدينة الضارية الى ضاحيتها البعيدة و أول مكان خطر على بالي كان الخلاء الواقع وراء البيوت. (الشياطين وحدها هي من يميل إلي الأماكن المهجورة و يتعلق بها) ربما وسط ذلك السكون يفتح الله (أولى بك أن تقول الشيطان) عليّ بالحركة المنتظرة التي سينفتح بها الباب المغلق. تخيلت كاميرا تتبعني (وهم داخل الوهم) و شاشة أظهر عليها و أنا أنقب عن البهاء. ثم صارت الشاشة سوداء لتنتقل الكاميرا لتصورني محاطاً بالقضبان فقد زج بي سدنة المدن

في الحبس بعد اكتشافهم أنني أنقب عن البهاء و أحرض الآخرين حتى يتخلوا عما هم فيه و يتفرغوا للبحث عنه فحاكموني و قالوا أنني أهدد الأمن العام و أثير القلاقل و أصرف الناس عن أمور معاشهم و استخف بالقضايا المصيرية التي تشغل حياة الإنسان المعاصر بهرطقتي التافهة و تجديفي الساذج. كانوا ضخاماً و يضعون النظارات السوداء على عيونهم و أخبروني أن سحقي لن يكلفهم أدنى جهد لكنهم يفضلون تلقيني درساً لن أنساه فإذا لم أتعلم كيف ينبغي على الإنسان أن يعيش فلا ألومن إلا نفسي.
كنت هادئاً و متماسكاً رغم الظلمة و الظلم الذي أكاد ألمسه بيدي. رغم الجو الصارم و الشرير الذي حاصرني من جميع الجهات فقد كان تفكيري منصرفاً إلي الفتاة التي علمت صدقاً و حقاً أنها قد مست المنطقة التي كادت تقبر فيّ. كانت دعوتي للبهاء تثير حفيظة الناس و سخريتهم و كنت لا أترك تجمعاً إلا و أثرت المسألة فيه و قبل إلقاء القبض عليّ بلحظات كانت هناك عينان تطلان من الزحام و ترسلان نظرة رءوم صوبي. أحسست بالقشعريرة ثم أحاط بي العسس و حملوني إلي السجن. كان تعصبي للبهاء قد تضاعف فبعد عدد من المحاولات للتصالح مع العالم وجدته يزداد جهامة و فظاظة و غلظة لا يملك غيرها و لا يكف عن إنتاجها و توزيعها و بثها في كل مكان حتى أحاطت بي احاطة السوار بالمعصم فألفيت نفسي وحيدا غريباً غير قادر على التعايش مع كل ذلك و مواجهته إلا برفقة البهاء و التشبث به حتى الرمق الأخير.
كنت أجد بعض العزاء في مصادقة الأشجار و الاحتفال بالظلال عندما تمتد و كأنها تسعى إلي تضميد جراح الدنيا و العالمين لكنهم لم يكفوا عن قطعها كما لم يكف الباعة المتجولون عن تلويث الظلال فنهضت للذود عن ما بقيّ لي في هذا العالم فكان الحبس مصيري. لست قلقاً بل سعيداً و متحررا من من أثقال كثيرة في انتظار الهبة التي وعدت بها عيناها. و انشق جدار الزنزانة فدلفت إلي حديقة مهجورة ٠(حتى في الخيال يميل قلبه إلي كل مهجور و منسي) رأيتها تداعب الأشجار و تبتسم. ذهبت إليها و أخذنا نتجول في صمت. نفضنا الغبار عن وردة فأصبحت صديقة عزيزة علينا. و فرحت بنا أوراق الشجر و فسقيات الماء و القمر و العشب المهمل و تصاعد لحن خافت تبعنا في كل مكان و أذكر في أحدى المرات أنني تخيلت أن بامكاني لمسه و لكنني لم أفلح و أفهمني بطريقة تعرفها مثل تلك الألحان وحدها أنه ليس للمس و يكفي الإحساس به بطريقة ما, و إذا عدت لمحاولة الاستيلاء عليه كما لو كان أوراقاً مالية أو سلاحاً فان شر عظيم سيحل بالمكان و هو سيذهب و لن أقع له على أثر.
كان ذلك أول فيلم قمت بعرضه على شاشة الفراغ و قد حاولت تضمينه بعض الدروس الهامة عن البهاء. (من العجائب إن يكون لدى الملاحيس ذهنياً دروساً يلقونها على غيرهم). ليس لدي ما أواجه به قسوة الحياة و صلفها سوى ذلك.

مطاردة البهاء هدت حيلي لكنني أهرب بكل ما أوتيت من قوة من الركون إلي فكرة أن المرء يمكن أن يحيا مثلما يحيا الناس – خصوصاً في مثل هذه المدينة- ثم يبلغه. لا أعلم ما أبغضه في حياة هذا الأنام لكنني واثق من أنني إذا ما شرعت في إحصاء المثالب و المظالم و الزيف فسأحصل على قائمة غير منتهية تجعل من مطاردتي المحمومة و تشبثي المستميت بأمل التعلق بأستار كعبته عملاً لا يقبل المساومة أو المهادنة.

و تفرغت للأفلام و الموسيقى. أفلامي تعج بالمواقف التي تستل الموسيقى المرموسة في البشر و هي الموسيقى التي دفنتها قرون اللهث المحموم خلف سراب غد يصحو الإنسان فلا يجد نصلاً مسموماً مصوباً إلي صدره. لم يكفوا عن التلويح بغدهم المبهج, لكنهم ما كفوا عن شحذ النصال التي تذبح ذلك الغد يومياً. إنني في نهاية المطاف أحلم بحركات و سكنات تعرف الطريق الى موسيقاها. (كان غيرك أشطر يا فالح) أن تصحو من النوم فتتجه الى مكان تقصده كل يوم أمر يفقد معناه بمرور الزمن والتقادم. و المشي في أزقة مظلمة في آخر الليل قاصداً البيت للنوم من أجل الاستيقاظ مرة أخرى للسير في الاتجاه نفسه أمر يحقن الدم بالقنوط و يقتل نزعات التحليق التي لا يخلو منها إنسان فتروح و تغدو منكسر الجناح و ميتاً. يجب اتخاذ قرار ما, اقتحام مكان محظور, عدم الطاعة أو الخروج دونما عودة, بمثل هذا وحده تتحرر من قمقمها فتسمعها و يسمعها العالم معك. في هذا الخلاء أشعر أنني في أحسن حالاتي حيث أتخلص من حذري و لا يداهمني الإحساس بالخزي لتطفلي على مباهج لا تخصني.

هنا لا تستطيع المدينة الشرسة و سكانها الغلاظ الأفظاظ النيل مني. لو علموا بأمري لتندروا به (ما دام الواحد يعرف أنه مسخرة فلماذا يتنطع و يركب رأسه و يستمر في التهريج على خشبة طافية في العدم) و لاعتبروني سفيهاً و كافراً (و هم محقين في كل ما قد يذهبوا إليه و لو صلبوك في ميدان عام لما وجدت من يتعاطف معك). لا يجب أن أمنحهم الفرصة. لكنني حتى هذه اللحظة لا أجد للبهاء تعريفاً و شكلاًً, لكن على كل حال فان طول انشغالي به علمني بعض الأمور الهامة. يبدو الأمر و كأنه يتعلق بتميمة خارقة, قادرة على إشاعة الإحساس بالأمن و السلام و الراحة لا يمكن أن توفره جميع أجهزة الأمن, و لا لجان السلام الدولية و لا أكبر بيوت الأثاث فيخلو البال من الهموم التافهة و المسئوليات التي لا معنى لها و الضرورة البغيضة لارتكاب ذنوب تصبح عادة و شغلاً شاغلاً, بل قد نؤنب النفس إذا ما فاتت فرصة ارتكابها, تميمة البهاء لها القدرة على إشاعة هذا النوع من الإحساس بل إن ذلك يعد أقل هباتها خطرا, فلديها من المنح و الملح ما لم تسمع به أذن,و لا رأته عين, و لا خطر بقلب بشر.لكن البهاء أيضاً موسيقى تتصاعد عندما يتلقى هذا العالم من المريد المنقب دروساً بليغة في الإفلات من رق العيش وفق شروطه الحمقاء و هو إطلالة وجيه حلو و أنيس و هو ما يسعى

البشر أجمعون إلي بلوغه بقفزات كبيرة متعجلة يتحطم بها الجسر الذي قد يحملهم إليه. (وتريد أنت بلوغه مع افتقادك لمهارة القفز؟)

*   *   *

كثر ترددي على الخلاء الفسيح دون جدوى. لماذا تتعاظم كل يوم نزعة الفرار من البشر, لماذا انقطع الرجاء في حصول شيء ذي بال بينهم و أنا منغمر في ضجيجهم و عجيجهم. كنت أتجول قانطاً و لا أعرف ما أفعل. أخذت أصيخ السمع فبلغتني أصواتهم نائية و خافتة. هدير المركبات و صياح الباعة و صرخات مبهمة, دائماً صرخات و خلفية ذلك جميعه دمدمة غامضة لصوت غير محدد. ربما هو صوت الأصوات جميعها عندما تخرج من الناس و الأشياء فتتجمع بمكان ما ثم ترتد مرة أخرى فتسمع على هذا النحو و ربما تلك هي المادة الخام التي تشكل الموسيقى. ربما هو صوت الأرواح و قد تعبت من سجن الأجساد المترنحة فأنسلت إلي الفضاء و أخذت تتسامر على مهلها دون إحساس بالخطر. لو أنني تمكنت من الصعود إليها بروحي و جسدي معاً, لكن هيهات ليس لي سوى الخلاء و حتى في قلبه أحس بعضة القيد و تسخر مني جدران السجن الكبير الذي يحيط بالبشر و هم عنه غافلون و تائهون. (كل جهده ينصب في ترديد عبارات من قبيل لو أني تمكنت من فعل كذا, و لو أن كذا حصل فما من بهاء و لا يحزنون فقط نواح العجز و الحيرة يتصاعد من صدره و سطوره) و أخذت أتعزى (و هو يتعزى و لا عزاء) عن الإحساس المتصاعد بالإفلاس بعرض المشاهد الأخيرة من فيلم محاكمتي. كان القفص صغيراً و حقيراً بينما المنصة التي تحصن القضاة خلفها عالية و في غاية الفخامة, لكن ذلك لم يجعلني أشعر بأي نوع من الضآلة أو الدونية . (و سيظل المكان الوحيد الذي تتخلص فيه من ضآلتك و عجزك هو أستوديهات وهمية تنتج أفلاماً فاشلة) بل كنت أحس أنني أعظم منهم و أرجو الخير للدنيا و البشر حقاً و صدقاً و كنت رابط الجأش فمنذ تحولي الى الجهر بالبهاء لم يعد يهمني شيء و فارقني إحساسي القديم بالضآلة و الهزال (هذا ما تتمناه و ما لن يحدث أبداً).

لم تتضمن المحاكمة أحداثاً كثيرة و سارت على النحو التالي:

سألني كبير القضاة الأسئلة نفسها التي ألقاها علي المحقق فأجبت عليه الإجابات ذاتها لكن الأمر هذه المرة تم بحضور أجهزة الاعلام.

قلت له يا سيدي القاضي أن الحياة أصبحت بدينة جداً و قد ترهلت لكثرة ما تغذت بجثث أحلام البشر, و أفهمته بأنني بحض الناس على عدم الخضوع لبرنامج ثابت و محدد و بمحاولتي إشعال النار في المصالح الحكومية و الأسواق و المحطات العمومية إنما كنت أحاول إعادة بعض شبابها و فتوتها إليها شبابها الذي يعمل أمثالك على امتصاصه وتجفيفه من نضارته تمهيداً لدفنه.

بعد ذلك أصدروا حكمهم فقضيت بالسجن عدة أيام حملوني بعدها إلي مصح الأمراض العقلية حيث سأقضي بقية عمري. (أخيراً ها أنت تتعرف على مكانك و تعترف بأنه الأنسب لتقضي عمرك فيه.) ظللت رابط الجأش و ما سمحت للحزن أن يتسلل إلي و كنت مطمئناً إلي أن فكرة البهاء ستجد طريقها إلى الناس إن عاجلاً أو آجلاً و حتى إن لم تدفعهم إلي الهجوم على كل ما يعيق تدفقهم على نحو ثوري و حاسم فلا شك في أنها قادرة على إيقاظ مشاعر نادرة و تحريك رعشات لا تقدر بثمن لا يمكن أن تمضي الحياة بدونها و حتى إذا دفنت فان اليقين بأن لا مناص من انبعاثها سيظل حياً. و أخذت أقضي ما تبقى من عمري في حديقة المصح المهجورة بصحبة تلك الموسيقى التي لا يسمعها أحد سواي. (مبروك و هنيئاً لك بالموسيقى و العاقبة لكل من يبني حياته على شفا جرف هار.)

* * *

لكن متابعة إنتاج الأفلام على هذا النحو أمر غير مجد. و ما المجدي في هذا العالم المجبول من الأفكار و الواقع. الواقع يسحقني و حينما أفكر في ما يقع فان الأفكار تسحقني.

* * *

دخلت في خلوة طويلة أمضيتها معتكفاً في حجرتي الضيقة. كانت أمي تبيع الحلوى للأطفال و تؤمن الوجبات. (يا خائب) لم نكن نتبادل سوى جمل مقتضبة و كانت تتجنب النظر إلى عيني, لكنني في الليل كنت أسمعها و هي تغالب دموعها و تدعو الله أن يهديني.

أرهقني الماضي و المستقبل يلوح لي حفنة أخطار مبهمة. أنني صفر على الشمال (كثر من هذا لا فض فوك) و حصيلة تسكعي و تنقيبي و مطاردتي أقل من الصفر. (ما دمت تعرف هذه الحقائق الناصعة فلم لا تحمل بطانية و لحافاً و تتوجه لتسليم نفسك لمستشفى الأمراض العقلية و النفسية حيث المكان المناسب لك و لأمثالك) تلك هي الحقيقة المرة التي ينبغي علي مواجهتها.

لكنني معذور فطريق البهاء محفوف بالمخاطر و حافل بالعراقيل و الخسارة متوقعة بل هي أقل ما يمكن حدوثه. و أخذت أجول بطرفي الأسيان في أرجاء الغرفة الفقيرة و أنا متلدد في الحيرة. و قمت إلى المرآة المكسورة فألفيت وجهي شاحباً و شعري أشعثاً و كانت هيئتي لا تختلف كثيراً عن هيئة المعتوهين اللذين يتطوحون في شوارع المدينة و أزقة أطرافها. لي شرود نظرتهم و ذهولهم و ليس لي شجاعتهم التي يجابهون بها صرامة العالم و يصارعون أشباحه اللئيمة و يحاولون فتح النوافذ الموصدة بوجه البهاء و سناءه. هل أحسدهم؟ (حتى الجنون لن تجد لنفسك مكاناً فيه فخبرنا ما أنت فاعل) لكنهم ضحايا هذا العالم الذي يمنع و لا يمنح و لقد حذرت نفسي مراراً من هذا المصير فلماذا أغبطهم

الآن؟ أهو الإحساس بقرب النهاية؟ أهو الاستسلام و التسليم؟ و هل تكون نهاية طالب البهاء على هذا النحو؟
مضت أيام أخرى لم يكن لي فيها سوى الوجوم و السهوم و التأوه. (ومتى كنت تفعل شيئاً آخر؟) ثم شرعت قبضة اليأس ترتخي و شرعت في العودة ببطء إلي جاري العادة في أنه أمر سيتم به خلاصي.
دخلت الحمام و رجلت شعري و خرجت إلى الطرقات. أعلم الآن أن الأمر الذي أتجشمه غامض و عويص(لا تعرف موارده و لا تبين مصادره لا يهتدي لمسالكه, طريقه مظلم و بابه مبهم و دليله أبكم, رمته فتعذر و حاولته فتعسر و زاولته فنفر و راودته فاستعصم و اعتاص و ألتوي و أدبر لكنني سأظل مقتفياً أثره, طالباً له, متوجه إليه لتثبتي من أن ملازمته و طاعته واجبة و مصافاته إقبال و مخالفته تخلف و انحلال.) من جواهر الألفاظ.
كيف لي التخلص من التحلل و الانحلال و كل شيء على ما هو عليه؟ ليس لدي سوى إيماني به, لكن هذا الوهن الذي يزحف بثبات يتهددني دائماً و أخشى ما أخشاه الآن أن أصحو يوماً لأجد فكرتي عنه قد ذبلت و تساقطت كما تتساقط الجهنمية الحمراء أسفل الجدارات فتذروها الرياح و تدوسها الأقدام. ليس بحوزتي سوى عينان أحمرتا لشدة ما حدقتا و قدمان كلتا من كثرة ما تسكعتا و قلب وجف و خف و طار لكثرة ما دق و نبح.
عدت إلي الدار ذات مرة فجاءت الوالدة لتتحدث معي. لم يحدث هذا منذ زمن بعيد. بدا عليها التردد لكنها في نهاية الأمر دخلت في الموضوع مباشرة. قالت إن الجارة فلانة زارتها اليوم و سألتها هل أنا مريض, و نصحتها أن تفعل شيئاً من أجل إنقاذي. بعد الانتهاء من سرد ما قالته الجارة عرضت علي زيارة شيخ يعالج بالرقي. قمت و خرجت ثانية. هل في سلوكي و في الطريقة التي أحيا بها ما يحمل الناس على الاهتمام بي؟ الناس على ظهر الأرض لا يتركون بعضهم البعض يعيشون في سلام. كل شيء يلفت انتباههم و تكرار أمر ما و تعلق أمرؤ بشيء يثير فضولهم و يؤجج شهيتهم للبحث عن الفضائح و أسباب جنون الآخرين خصوصاً إذا كان الأمر غير واضح و غير محدد.

ما خفت منه قد وقع. أنا الآن غريب و شاذ و مجنون. على الأقل أمي و الجيران يرون ذلك. الصمت و العزلة تجعلان الناس يستغربون أمر من يصمت و يعتزل. فإذا ما بالغ الكائن في في صمته و عزلته سعى الناس إلي معرفة الأسباب التي تدعوه إلى ذلك و ربما سعوا إلي مد يد العون له و ربما رأوا فيه خطراً داهماً يتهدد أمنهم و سلامتهم.
لكن, أولست مجنوناً بالبهاء؟

لكنني لا أحب أن ينظر الناس إلي بشفقة و سخرية. (كان الأولى بهم أن ينظروا إليك بعيون يتطاير الشرر منها)
ما العمل؟ من العسير على ابن آدم الجمع بين العيش علي النحو الذي درج الناس على أن يعيشوا عليه و في الوقت ذاته الانهمام بالبهاء و مطاردته.
و ما العيب في النحو الذي يعيش عليه الناس؟
و هل هناك عيب أكبر من وضع البهاء على الرف ريثما يطارد أبن آدم لقمة العيش و ينشغل بتنفيذ التعليمات التي تصدرها المدن المتوحشة. لذا فأنت ترى الناس يقبلون على البهاء في نسخه المزيفة إقبالا عظيماً.
و ما نسخ البهاء المزيفة؟
أو لا تراها تعج بها الطرقات و تضج بها الحيوات؟ أو لا ترى النساء و هن يبالغن في وضع الأصباغ على وجوههن و الناس يطلبون السلطة و الجاه و يعرقلون بعضهم البعض و يكمنون كمون الثعالب و ينقضون انقضاض الحيات؟ و لكن ذلك هو شأن الحياة على ظهر هذا الكوكب منذ وجد فان كان هذا لا يروقك فابحث لنفسك عن كوكب آخر.
و لماذا؟ ما دمت واثقاً أن البهاء مدفون و مغيب و منسي في هذا الكوكب. ثم من قال إن هذا هو شأن الحياة؟ لا و ألف لا فللحياة شئون و شئون و لا يكفي أن تفرض علينا بعض الشئون التي لا طعم لها لنقتنع و نقول إن الحياة هي هكذا.
هناك تلك المتاهات التي تخبرنا عنها الكتب و هناك أفعال لو واظب الناس على التمسك بها لارتفعت الحجب عن آفاق لا مثيل لها.
فلماذا يتزاحم الناس هكذا لماذا يصرون على التكدس في ساحات الذل و الهوان في الساعات التي يسمونها ساعات الذروة؟
سيستعيد العالم بعض عافيته لو تخلى الناس بعض الشيء عن التقيد بالبرامج التي رسمتها لهم الحضارة. (لم يبق إلا أنت لتتكلم عن الكيفية التي يمكن أن يسترد بها العالم عافيته. أجدر بك أن تلحق نفسك و تهتم بما بقي لك من عافية لعل و عسى). لو أنهم انفلتوا من العقال فسيطل الربيع من العيون و ستغدو هذه الأرض جنينة تتلقى هبات الذهب بالنهار و تكتسي ثياب الفضة بالليل و ستغدو الحياة دمثة, لبقة, معطاءة. (كيف لها أن تصير كذلك و أمثالك يلوثون هواؤها بالغازات الشريرة؟)
ما زلت أتخبط في الشوارع و أحس بالحمى في عظامي و الدوار في رأسي. لا بد من وضع حد لكل هذا. لكن ما الذي أريد وضع حد له. عندما عدت إلي الدار وجدت أمي مستيقظة. نظرت إلي نظرة طويلة و لم تقل شيئاً. أطفأت النور و أخذت أتقلب على جمر الفراش. اهتمامها بي تعاظم في الآونة الأخيرة. بات حاراً و من عينيها تطل الشفقة و الرثاء و الرغبة الأكيدة في المساعدة.

ربما يحدث هذا لآن نظرتي باتت شديدة الالتياع و ربما لأنني في كثير من الأحايين أصحو صارخاً و مستغيثاً. حدث ذلك مرات لأجدها عند رأسي و هي تتمتم بالآيات. لا بد من عمل شيء من أجلها.

* * *

و عدت إلى العمل.
أخبرني الباش كاتب أن الإدارة ناقشت قراراً يقضي بفصلي و أنه تدخل و تحايل على الأمر لعلمه بظروفي و طلب مني أن أضع عقلي في رأسي و أن أدع هذا الاستهتار و أن لا أرفس النعمة بقدمي و إلا ندمت فهناك كثير من الشبان في مثل سني ينحتون الصخر و لا يجدون سبيلاً للحصول على الوظيفة التي أشغلها.
و أخذت الحياة تسير سيرها المعتاد و تزايد انقباضي و أنا أدوس على الإحساس المتفاقم بعدم الرضا و ضقت من محاولاتي الفاشلة للتصالح مع هذا العالم القبيح و الغبي.
و تمسكت بتجنب الأشياء التي تجعلني أحس بالذل و الهوان و خاصة تلك التي يجعلني الانغماس فيها أشعر و كأنني كففت عن التنقيب عن البهاء. كنت أصر علي النهوض في وقت مبكر جداً من الصباح حتى لا أشترك في المعارك التي يشترك فيها البشر لدى أبواب المركبات العمومية فأقطع المسافة الطويلة إلى المصلحة راجلاً و أعود راجلاً أيضاً. الزملاء في العمل يتجنبونني فكفيت شر الاختلاط بهم و الاهتمام بما يهتمون.
و تخليت عن التسكع في الطرقات مكرهاً لجهامة لمستها فيها باتت لا تستبدلها بغيرها و استبدلته بالتسكع بين صفحات الكتب. ما حدث هو أنني سعيت إلي شرب الكلمات شرباً. (هنيئاً لك لكن لا تحلم بالارتواء) هادنت العالم قليلاً لكن آليت على نفسي أن لا أجعل الهدنة مدخلاً للتهاون و الانكسار. الأمر لا يعدو كونه انحناء بوجه العاصفة. أحياناً تطبق على الكآبة و تحاصرني و تكاد تخنقني عندما أتذكر أنها عاصفة هوجاء تهب من كل الاتجاهات و تقتلع صغير النبتات و كبيرها وتمهد للصحراء طريقاً مفروشاً بجثث الأحلام. لكن سرعان ما أتشبث بفكرة أن البهاء هو قدري و هو قادر على فرض حضوره في جميع الأحوال و الظروف.
و اقتنعت أنه ليس لدي ما أفعله سوى الانتظار و الترقب. بل اقتنعت أنه لا فائدة من وضع خطة لمواجهة صفاقات هذا العالم و وقاحته العمياء. و شرعت في صياغة عبارات من شأنها التخفيف من حدة ضغوط كل يوم و بغاية التشبه بما يمكن أن يكون عليه البهاء و شئونه. العبارات سعيت بها للإشارة إلي شيء مفقود و التعبير عن أمل في الوصول إليه أو على الأقل التعزي بأن الوعي بفقده يشكل وقوداً يمكن أن تبحث به الحياة عن دروب غير المألوفة و المتهالكة من كثرة الارتياد. أول عبارة نجحت في صياغتها كانت {عطر ذاكرتي المفقود} و

أيضاً {عطر ذاكرتي المفقودة} و قد أطلقتها على العطر الذي يوشوشوني عبقه بين الحين و الآخر.
و نحت ذهني في سبيل صوغ عبارات أخرى و بعد لأي وجدت أن عبارة مثل {لحظة البهاء الصافية} قريبة و مناسبة و تستحق السهر عليها و حمايتها و وضعها نصب الذاكرة و أخذت اجتهد في تركيب العبارات التي تبقي البهاء حياً و ماثلاً, عزيزاً و شريفاً و التي ستمنحني الحصانة اللازمة لتجنب الانزلاق إلي ما لا يجب الانزلاق إليه لكنني لم أفلح في إضافة شيء إلي ما سبق فأخذت أردد تلك العبارات بيني و بين نفسي و في بداية الأمر كنت أجد متعة كبيرة و بمرور الزمن انتابني السأم و وجدت أن ذلك مثله مثل كل شيء, برق لا يعقبه غيث. (سيظل دأبك الانخداع بالبروق الخلب و مطاردة السراب و حصادك سيظل السأم و الندم)
و في ظل تكرر المعاناة نفسها انضم إلى الأعباء الكثيرة التي تعج بها أيامي عبء جديد و عذاب من نوع آخر. كان ذلك هو عذاب التفكير في ما انشغلت به طيلة المدة الفائتة و النظر إليه بوصفه كلاماً فارغاً إن لم يكن انتحاراً بطيئاً. كل ما سعيت إلي التشبث به تسرّب من بين أصابعي و تلاشى و عندما أتفكر في حياتي و أتأملها أرى الأشياء الصغيرة و القريبة إلي نفسي تمضي و تتوارى, كأنها صارت في عداد الموتى و إلا فأين ذلك الإحساس الجليل الذي كان يسربلني في لحظات الغروب و أي ريح كسحت محاولاتي الخجولة في اختلاس النظر عبر الأبواب الموارِبة لعل العين تصادف طيف الأميرة المفقودة, و كيف لم انتبه إلى أن نداء الصباح الذي تناهي إلي سمعي مرة قد أنطفأ؟
تلك الأشياء الصغيرة و العزيزة إلى نفسي كانت تنعش الأمل و تهون علي أثقال العيش وتجعلني قاب قوسين أو أدني من حالة التدفق التي أجد في طلبها و التي مستعد لدفع العمر ثمناً لها, ليتها تأتي فتحاصرني و تمتلكني و تفعل ما يحلو لها بي, يا ليتها تميط اللثام عن بعض أسرارها لأتعلم العيش على منوالها. كل ذلك بات مفقوداً و نائياً الآن وما عدت امتلك حتى القدرة على الانتظار و الصبر. الدنيا تبالغ في التقطيب و المدينة مكشرة عن أنيابها. ربما هي تفعل ذلك حتى ارتدع و أرعوي و أكف عن نبش القبر بحثاً عن جثة ربما لا تكون موجودة أصلاً.
و لكنه ليس جثة. هذه الحكاية لا تتعلق بجثة. كيف يكون جثة من يهب الحياة و يطرب القلب. هذه المدينة بتكشيرتها المتوحشة تؤكد أن لديها ما تخفيه و ما تسعى إلي منع أي كائن من كان من بلوغه و هي تبالغ في الصخب و الضوضاء لتخرس ترنيمة البهاء, تلك الترنيمة التي لا تحب أن يسمعها الناس أو ينتبهوا إليها. تريدنا أن ننسى و أن نتجاهل و نتغافل و ندور حول أنفسنا و تتخطف أنفاسنا و نحن نطارد سرابها, يبهجها منظرنا و نحن نرقص في حلباتها الضيقة و تضحك علينا بملء فيها و نحن نلهث خلف هباتها التي تمنحها باليمين لتستردها بالشمال. أف لهذا العالم و ساكنيه. ماذا انتظر منه و كيف أسمح لنفسي بمهادنته

باسم إرضاء الوالدة و احناء الرأس حتى تهدأ عاصفة لا هدوء لها؟ كيف قبلت بالعودة إلى ذلك السجن الذي يسمونه العمل و أخذت أتنفس الهواء المسموم باطمئنان في انتظار وقوع المعجزة.

و لكن ماذا بيدي حتى أصنعه؟ كظمت غيظي و واظبت على الابتعاد عن المحطات المزدحمة و تشددت في تجنب الحديث مع الناس و عندما اضطر كنت أجيب بهز الرأس و قلبت في رأسي فكرة ترك العمل مرة أخرى ثم عدت فعدلت عنها و قلت إن أي مكان في المدينة يشبه المكان الذي أعمل فيه إلي جانب أن تركي له سيعيد شريط محاولات أمي لإنقاذي.

جميع الناس على ظهر الأرض موظفون في مؤسسة القضاء على البهاء قضاءاً مبرماً. البعض منهم عملاء سريين و تجار أسلحة يعرفون كيف يشكلون العالم على هوى مجلس إدارة المؤسسة الغامض و شعارهم هو أن ابن آدم كي يستحق وجوده فان كل سكنة و حركة يقوم بها ينبغي أن تكون ضربة معلم, و آخرون يرتقون سلّم الصعود إلى الدرك الأسفل بقفزات مدهشة و السواد الأعظم مغفلون نافعون يعملون في خدمة المؤسسة و يحققون أهدافها دون علم منهم.

* * *

ذات يوم انتبهت إلي خطورة الموقف الذي أنا فيه (بدري)لا تتمثل الخطورة في أن البهاء بعيد و صعب المنال و ربما مجرد وهم بل تكمن في الضيق الذي بدأ يتسلل إلي نفسي من مشاغل و ملاذات هي الأثيرة عندي و الأخيرة بالنسبة إلي.

انتبهت إلي الأمر عندما قذفت بكتاب طالما أحببته و لجأت إليه. كان جديداً دائماً و مفاجآته لا تنقضي لكن ما حدث ذلك اليوم كان إشارة لا تقبل الجدل إلي ما وصل إليه الحال من تدهور. ألقيت به جانباً و أخذت أحدق في الظلام. ما جدوى هذا كله؟ كل هذه الصفحات, الحروف الصغيرة التي انكب عليها (و هي تنكبك دائماً) و أصر على تتبعها علي ضوء شحيح, الغلافات التي حالت ألوانها, الروائح العتيقة, الحكايات و الصور, كل هذا يضيع في الزحام, يبتلعه الضجيج, يتوارى و يتلاشى و يغيب و أنا ألهث ما فائدته؟

و استدرت كمن يواجه نفسه. لكنني أعرف له فائدة جليلة و قد أقمت مع ذلك كله صداقة لا يمكن خيانتها. لقد علمتني دائماً أشياء أقولها, كلام أردده بيني و بين نفسي, شيء أتذكره في المواقف العسيرة و عندما أحس بأنني بلا وجيع و أن العالم أولاني ظهره فان عبارة من كتاب, مقطع من قصيدة يمنحني من المواساة ما لا يعرف البشر كيف يمنحونه.

كومة الكتب التي تراكم عليها الغبار هي من يفهمني, صالحة و برّة بي, لم تعمل في يوم من الأيام على تبخيس الأمر الذي نذرت حياتي من أجله, بل هي تدعمه و تشجعه و تتواطأ معه و تحفظ أسراره و حين أرقد رقدتي الأخيرة فهي سترفع

الستار عن الأفق النفيس الذي حجب لهذا السبب أو ذاك طيلة المدة التي سبقت ضجعة موتي.
أخذت الأشواق النائمة تنتفض و شرعت تزجر الخنوع الذي أكثرت من الوقوع بين براثنه في الآونة الأخيرة و أخذت تهاجمه بضراوة.
كانت طاحونة الحياة قد أخذت مني ما أخذت و دسّت لأشواقي أصناف من المخدرات فترنحت و استغل العالم حالة الضعف التي دائماً يستدرجها إليها, فوجه لها ضربات محكمة و تابع مهمته بمهارة فائقة و هي تتخبط بلا هدي فعمل على توجيهها إلى مثواها الأخير, لكن يا للأشواق الصادقة المكافحة, هاهي الآن تتحامل على نفسها و تتطلب المبارزة لتعيد الاعتبار للبهاء و لتقوم بواجبها رغم العاهات الكثيرة التي أورثتها إياها الضربات المتوالية و أصناف المخدرات الجهنمية. حيت أشواقي سهري و جعلتني أثوب إلي رشدي فحملت الكتاب و ربت عليه مواسياً و معتذراً.و تغير الوضع فتدفق الدم في عروقي و اشتعل جسدي بنشاط لم أعهده في نفسي من قبل. تحولت من رجل مسكين و بائس اختلطت عليه الأمور و أوصدت بوجهه الأبواب إلى قائد بغرفة عمليات, قائد محاصر, سيان عنده كسب المعركة أو خسارتها, ما يهمه هو أن يخوضها بشرف و نزاهة. سأفعل ما يمليه عليّ ضميري و يتوجب علي الرد بصورة عملية. (كل سبب الكوارث التي يعاني منها العالم تنبع من هنا. إنها احباطات الفاشلين و أوهام الواهمين التي تنغص عيش الناس على سطح الأرض و تفقد الحياة أمنها و طمأنينتها. أنظر إلي هذا المخبول و افتراءاته. أنه لا يملك ما يؤهله لحل مشاكله الشخصية التافهة و مع ذلك يتنطع و يرفع راية الحرب ضد العالم بأسره لكن هيهات فللأوهام حد و للعالم رد و قد حانت ساعة الجد)

*　　　　　*　　　　　*

عتادي قليل و المواقع التي يمكن أن أوجه منها ضربات استراتيجية معدومة و أسهل شيء يمكنني فعله هو اتخاذ مواقف و قرارات حاسمة بشأن الأشياء التي ظلت تحجب عني البهاء.
أول قرار اتخذته كان مقاطعة العمل نهائياً و عدم العودة إليه مهما كان الأمر. الأمر الآخر الذي رأيته ضرورياً في مثل معركتي هذي هو أن لا أكترث لما سيظنه الناس بي و أن لا أعطي وزناً لما سيحاولون القيام به في سبيل أعادة صوابي إلي بمن فيهم أمي. (لا أحد يكترث بك أو بما تفعله و العالم الذي تتبجح بأنك ستشن الحرب عليه سيعرف كيف يتدبر أمره معك) الصواب هو أن أحاول استلال الموسيقى من غمدها لأشهرها بوجه هذا الخراب. (تعال قبل أن ينفذ صبر الخراب فقد ضاق بك ذرعاً و ظلت أبوابه مشرعة لاستقبالك و قد أسرفت في المراوغة و بالغت في التحدي و هو قد أعد لك موقعاً يليق بك)

تجاوز الوقت منتصف الليل, لكن ما الذي يهمني من ذلك, الأوقات جميعاً متساوية في الزيف و الزمن الحقيقي هو زمن البهاء.

تهيأت للخروج ثم أمسكت عنه. كنت في حالة اضطراب عظيمة و وجل شامل. (هكذا هم المجرمون الصغار دائماً) ذرعت الغرفة جيئة و ذهاباً عشرات المرات ثم توكلت و استدرت لأواجه نفسي مرة أخرى.

و ما الذي يمنع من الخروج الآن؟ هل ما زلت تعمل لهم حساباً؟ (من هم بالله عليك و لماذا تتخيل أن هناك من يهمه أمرك إلى هذا الحد حتى تجد نفسك مضطراً إلي أن تعمل له حساباً؟) مهلاً, رويدك لا تتعجل الأمور وخذ العبرة من أيامك الماضية, تذكر ما تردده عن تشابه الأمكنة و لا جدوى الحركة و السكون في هذا العالم, تذكر أن البهاء يأتي لوحده و أن الانتفاضات المفاجئة لا يعقبها سوى الانتكاس و النكوص. قليل من التروي لا يضير و أعلم أن الرمية التي لا يستعد لها الرامي و لا يتحين لحظتها المناسبة تخيب و قد ترتد إلى نحره.

بدا هذا الكلام معقولاً فهدأت و استرخيت. لكن بعد لحظات من التفكير أخذ الشك يأكلني و كدت أجزم أن المدينة دست لي عملياً يشركني ذاتي ليقوم بتخديري و تحذيري و تهديدي إذا استدعى الأمر و هو الذي يماطلني و يثبط همتي كلما ثارت ثائرتي و سعيت للقيام بخطوة عملية على النحو الذي رأيته و سمعته عندما استدرت لمواجهة ذاتي قبل لحظات فتململت كما يتململ الأسير في قيده و أدرت وجهي إلى الحائط و خضت مناقشات حادة و دخلت في مغالطة عنيفة و عندما هزتني يد أمي و طلبت مني تعديل موضع رأسي ما كنت أدري هل أنا نائم أم صاح و ظللت أهذي الليل كله. (بل العمر كله)

في الفجر خرجت و أخذت أجوب الفراغ بلا هدي. جسدي محموم و الصداع يفتك برأسي. كنت أشعثاً أغبرا لكن ذلك لا يعني شيئاً فقد خرجت لأضرب في الأرض و لأرصد الإشارات الخفية و لأتبع النداء إلى حيث تشرق شمسه اللطيفة. بحثت في الفجر الطالع عما يمكن أن أجعل منه نقطة للانطلاق فألفيته ملوثاً مريضاً غارقاً في آلامه غير آبه بي. يا للفجر الجبان, استسلم لهم و خضع لشروطهم ففقد مذاقه و أبهته و جلاله. و تلفت متحيراً فوجدت الأشياء على أهبة الاستعداد لاتخاذ الأوضاع التي اعتادت على اتخاذها كل يوم.

في زمن سابق, و في زمن لن يأتي, كان العالم يبدو لي و في مثل هذا الفجر صفحة بيضاء, تستلقي بين يدي لأخط عليها ما شئت, كل الاحتمالات واردة و ما تستقبله الصفحة يحدد مصيراً برمته, لم يقع ذلك سوى مرة واحدة ولم أخط حرفاً واحداً لأن رهبة انتابتني فخفت من التسرع و الخطأ ثم ما عاد يظهر إلا صفحة ملطخة تكاثرت عليها البقع اللزجة و ما عاد فيها مكاناً لكلمة السر المقدسة.

بلغت قلب المدينة و طلوع الشمس. وجدت البشر على تكدسهم المعتاد في المحطات و متدلين من المركبات و تأملت المناظر المألوفة بقلب كسير ثم اندفعت لخوض المعركة. و في بالي الرعشة العزيزة التي ستفلتني من هنا.
كان الباعة يتغنون بالسلع المضروبة و كان هناك باعة صامتين يروجون المنشطات الجنسية و العصبية و لم يبد على البشر أن لديهم الحد الأدنى من النوايا الحسنة لفعل شيء حسن. طيلة الرحلة المتعثرة ظل العميل شريكي في ذاتي يوسوسني و يقلل من شأن شعوري الحارق بالضيم و بأن الأشياء و الحقائق و الدقائق في غير موضعها و أن هذا التهافت المضحك المبكي علي السلع ينبغي أن يتحول إلى تنقيب عن الرعشة المدفونة, كان خبيثاً و يدفعني إلي قبول منطقه القائل بأن هذه هي الحياة و إن علينا قبولها كما هي و إلا فان الواحد لن يجد لنفسه مكاناً في زحمتها.
و من قال لك إنني أطلب مكاناً؟ بالله عليك ألا تراهم كالفئران في المصيدة؟ القلق الذي ينهش أرواحهم تنطق به عيونهم و قلة ثقتهم في أنفسهم و ما يحيط بهم فضيحة تنطق بها سكناتهم و حركاتهم المرتبكة و المضطربة.
أمضيت النهار كله في جدل مع ذلك الصوت الانهزامي الذي جندته المدينة لتعيدني إلي الحظيرة طيعاً و مطيعاً. ضاق بي ذرعاً بعد انتصاف النهار فلعنني و قال:
هنيئاً لك بجهنم التي اخترتها.
و اضطربت خطواتي بعد ما فارقني و لاح لي أنني مبهوت في عالم باهت. لكنني شددت قامتي و أخذت أصطدم بالعابرين من كل صنف و لون. الحصول على تلك الرعشة وسط كل هذا الضجيج و العجيج أسهل منه لحس الكوع و مع ذلك لم أتوقف حتى لالتقاط الأنفاس. و ما فائدة الأنفاس في خضم كل هذا الإفلاس. فلتنقطع لتنتهي هذه اللعبة التي أكلت مني الأخضر و اليابس لم تترك لي سوى المقامرة بهذا الجسد الناحل. عبرت الطرقات ضارباً بالحذر عرض الحائط. لم آبه بالعربات و إشارات المرور فبلغت أذني لعنات اللذين أوشكوا على دهسي و رأيت أنني لن أبلغ شيء من غايتي على هذا النحو فأخذت أركض في الشوارع بكل ما أوتيت من قوة.
أحسست بي خفيفاً و قادراً على فعل شيء ما و هبت نسمة تحمل عطر المروج المهجورة فتحولت إلي مهر بري يسابق الريح و أخذ النور يغمر عقلي و خلا العالم من البنايات الضخمة و الإسفلت الوعر و البشر المتدافعين لكنني ما انتبهت إلي الصرير القبيح الذي أطبق علي و ألقاني أرضاً إلا بعد فوات الأوان. أبطأت الآلة الرعناء و تدافع الناس إلي موقع الحادث و خفت صوت الناي ثم حل الظلام.
أفقت بعد ساعات فإذا بي ممد على سرير قذر. أول شيء انتبهت إليه كان رائحة البنسلين ثم تناهي إلي سمعي أنين و كانت يدي مقيدة بالجبس و رأسي ملفوف

في عصابة.بصعوبة بالغة تمكنت من الجلوس فأخذت أنظر من الشباك المطل على ممرات مظلمة. تبينت أسرة حولي و أشباح تئن. أرهفت السمع علي التقط صوتاً غير الأنين المبحوح و المذبوح فلم التقط. أرخيت رأسي علي صدري و لم أحاول القيام بأي حركة و سعيت إلي الكف عن التفكير و البقاء هكذا إلى ما لا نهاية.
هبت من الشباك المفتوح نسمة حملت عطراً لا دخل له بروائح المستشفى و لوائحه فلم أصدق الأمر, لكن العطر ظل مرفرفاً في الغرفة الكئيبة و سمعت لحناً هامساً فرفعت بصري فهالتني هالة الضوء المطلة من الشباك. كان وجه امرأة باسمة طالما حلمت بها يبث ذلك النور. ظلت في مكانها باسمة كأجمل ما يكون الابتسام و وديعة كأحلى ما تكون الوداعة, بسمتها هي بسمة من عرف كيف ينجو من الفخاخ في كل مكان بدون عنت يذكر. هزت رأسها هزة لا تكاد تلمح, ثم استدارت و مضت.
نهضت بصعوبة بالغة و خرجت لأتبعها. كنت أعلم أنها و اللحن و العطر شيء واحد و أن نجاتي مرهونة بالمثول بين يديها و كنت أعلم أيضاً أنها في الطريق للالتحاق بقافلتها التي تضم الناجين اللذين يستصلحون البقاع التي يحلون بها فيعمرونها بالعطور و الطيبة و يدعون الناس للالتحاق بهم فلا يأبه بهم أحد وما أن يرحلوا حتى يأتي سواهم و يمحوا آثارهم و يقوم بتحويل مقتنايتهم البسيطة و النادرة إلي سلع مشوهة و كنت أعلم أن كل أيامهم عيد و أنهم يجيرون المستجير و يبالغون في الاحتفاء به إذا ما علموا أنه انفق عمره في البحث عنهم.
كان اللحن يأتي من جميع الجهات أولاً ثم خيّل إلي أنه يأتي من الجنوب فيممت وجهي صوبه و رغم أن الضمادات كانت تعيق حركتي و الألم يعضني في مواقع شتى من جسمي إلا أنني لم أفكر لحظة واحدة في النكوص و التراجع و عندما أخذ الدم ينثال من رأسي و يتصبب علي وجهي شرعت أركض بكل قوتي عليّ ألحق بالقافلة المباركة لألفظ آخر أنفاسي بينهم.

*   *   *

القصائد

بعد أن نقلنا قصائد حكايته بقيت قصائده و هو قد منحها عنوان (محاولات و السلام) في أشارة منه إلي أنه لحوح و أن ما يرومه غير موجود لكنه لا يكف عن المحاولة من باب الاجتهاد و عدم الاستسلام و قد كان شكل الصفحة الأولى على النحو التالي تقريباً

محاولات و السلام
أو
كتاب المسافات الثابتة و القصائد الهاربة و
الرهانات الخاسرة

و إليكم القصائد و نرجو التوفيق و السداد (و تسديد الديون) و الانتفاع بالديوان الناقص لنا ولكم جميعاً والله المستعان.

مسافة

و إذ استطرد في نصك ينهمر الصبح
و تضمحل الأشياء إلا أنت
أكل هذا الصبح أنت؟
كم أنت زائدة عن الحاجة حين تقتربين
و حين تنأين فأنت بوصلة الاحتضار
بأوتار مرتخية
و زبالة يائسة
و خلفي الأزقة التي لم تتراكض فيها أحصنة
الأباطرة الناعسين, اللذين ضمنوا المجد
و بعقم ورثته أقترب منك
و إذ تنأين أعلم أنك ما زلت انهمار المعجزات
أتركي لي تخطيط المسافة بيني و بينك
لتصير مدينة بلا قصور
أو بحيرة كالكتاب تتصفحها الشمس بمقدار
أو لنتركها كما هي
فهي التي بيني و بينك
لتظل المسافة هي المسافة
اقترب و تنأين

حاجة

أفكر بالرحيل
ما عادت اللغة تجدي
ما عاد الشعر ينفع
قليل أقل من الكلمات
ما احتاج إليه
حياة كاملة: خالية من الأيام
و من الأوهام
و من اللغة
أناشيد ينشدها الصمت
عطور تسمعها الأذن
و بلاد تصلح للسفر و للموت
أحملها حين أسافر
و تموت معي حين أموت

* * *

عن اليمين و الشمال أنتم
في الخلف و الأمام
لا أعرف هل احتاج إليكم أم لا
لكن أنتم توابل الأيام و قنابلها
لن احتاج إليكم فابتعدوا
عقدة ذنب وحيدة سترافقني في رحيلي
هي أنتم
لكنني سأحاول جاهداً استئصالها

* * *

هذا الرحيل مأساة و ملهاة
قبله كنت أحاول الحصول
على الإحساس بالتماسك
و كنت أنغمر في النضال من أجل ...

و الدفاع عن
لكني وجدت أن ذلك ما لا احتاج إليه
* * *
ما احتاج إليه قيل هو الرحيل
أجده في الرحيل
لكنه هنا أيضاً موجود
يتلاشى أحياناً و يتجسد أحيانا
هو بعيد و قريب و عادي و عجيب
صادفته يمشي في الشارع
و صادفته يرقد في العشب
و طلع ذات مرة من صوت مغني
و حتى في بحر من الغبار
لاح منه وميض
لكنه كثير و متفرق
و تمنيت لو أنني جمعته في واحد
* * *
سوى رحلت أو لم أرحل
أنتم ستظلون المعضلة
التي تظلل الرحيل و الإقامة
فيكم كثير مما احتاجه و هو ضائع
و كثير مما لا احتاجه
و تبدعون في المحافظة عليه
* * *
لا أعرف هل رحلت أم لا
فأنا لا أعرف ما هو الرحيل

مكيدة

تأتين فتهرب القصائد
و تختل منظومة الغبار
حتى يصير بطعم الأمومة
فيسقينا عبير الحنين
أنت مكيدة مدبرة و فخ منصوب
مكيدة ضد الظلام
ضد الغبار
ضد الجانب المعتم مني و منهم
مكيدة ضوئية
و فخ من ورود
أنقاد إليه أعمى أصم

أنت مكيدة من تدبر قصيدة هاربة
تفر بطيئاً و تتلاشى
تتخلق في التلاشي
و تبقى بعيدة و لا تطال

رحلة خاسرة

منذ حين أراقب رحلة دمي
إلى جهات قصية
رحلة من الحمى لا تنتهي
و دمي ظمآن
و ضائع بين رحلته
داخل سجن الأوعية المتشابكة
و رحلته إلي هناك
أعرف اللعبة جيداً
ليس في الرحلة الدائرية من جديد
ينتقل دمي من وعاء إلى وعاء
و يظن أنه يتقدم
يا دمي
ما أبعد تلك الجهات
و ما أقسى الطريق
على رسلك يا دمي
*   *   *
لدي نشيدي و دمي
نشيدي مركبة مضعضعة
ربما في الطريق إلى الهاوية
و دمي خسر الرهان
لأنه ظن بوجوده
بينما ليس هناك رهان
*   *   *
دمي و نشيدي بعد كل شيء يتعثران
في زوايا الطريق المظلمة
فقد تلوح أفنان حدائقك البهية
يا جهاتي

قشعريرة الظل

تطلعت إلى الظل منصتاً لمناحته الهادئة
خلف المناحة غناء
و تطلعت عميقاً فإذا بالظل يقشعر
لكنه لا يبدو مقشعراً إلا لمن يريد أن يراه مقشعرا
الظل متعب
لأنه دائم التنقل بين الوداعات
يودع آلهته صوب نقطة لن يتمكن من الالتحاق بها
و إذ تنهره الشمس يهرب صوب عروش الآلهة
فتهرب منه
و تنهره الأشياء
الظل متعب و ضائع
و يستعين بالبكاء و الغناء
على التعب و الضياع
يا أيها الظل
سلاماً
فأنت الوديع

أركض الآن

طويلاً بحثت عن الوردة المعصومة
و عن الناسك الرابض في عرين من ذهب
لكن الشوك وخزني
و تربصت بي الثعالب و الذئاب
ضحكت مني الضفادع
و طاردتني الضباع
فررت
و في الركض
سمعت همسه الشاهق
يحكي جمال معجزة الرضا المختصرة في عرين
عرين من ذهب
لصلة الرحم مع النفس و تأملاتها
و نفحني شذاها محملاً بالحدائق
المختصرة في وردة
أركض الآن
هرباً من الغابة
أركض الآن
و في بالي الوردة و العرين

اللعنة

أنت
يا من أعرفه و لا أعرفه
أراه و لا أراه
يا دليلي و زوبعتي
أرشدني إلي
فتش عني فأنا لا أجدني
*   *   *

يا صراع الأشياء معي
و يا صراعي مع الأشياء
لماذا لا نتصالح
تربكني الأشياء دائما
و أحياناً أربكها
لو نتصالح
لكن الطرقات اختلفت, اختلطت, اشتبكت
تسير الأشياء شرقاً
فأسير غرباً و بالعكس
أصحو فتنام, أبكي فتضحك
أتشيأ, تتأنسن و تأسن
لا بل إنها تطير و أنا أحبو
و حين تحبو أطير
و حين تخبو أتجلى و العكس بالعكس
*   *   *

لو أنها لا أشياء
و لو أنني لا إنسان
لكنها أشياء
أنا إنسان
لا بد منها

لا بد مني
اللعنة
اللعنة على الأشياء
اللعنة عليّ
اللعنة عليكم
*

و بعد
خبرني
قل لي
متى أنام؟
متى؟؟

محاولات و السلام

أتجول الآن في أقبية الندم
و أتذكر كم محاولة حاولتها و فشلت
في البدء كان اسمها محاولات اقتحام
و مر الزمن فغدت محاولات و السلام
محاولات صغيرة في عالم كبير
(و ربما العالم أصغر مما تتصور
و هي أكبر مما تتصور يا سيدي)
حلمت بالديمومة ثم بالأمارة و هدني التعب
ثم صرت أحلم بالشيء و لاءه
و حين حلمت بأن أترك لحالي لم أترك لحالي
الحائط الكبير
هو نفسه العالم الكبير الخطير
في وجه محاولاتي الصغيرة
*　　*　　*
أتجول في السراديب
أحاول أن أبدو نادماً
أو أن أموت نائماً
لا أن أكون حالماً
لأن تلك هي الخطيئة في العرف السائد
الذي لا سادة له
غير فراغه
لكنني حتى في هذا فشلت
*　　*　　*
هنا لا أفعل شيئاً
أندم بين الفينة و الأخرى
فلا يحدث شيء

و نـادراً أحلم
فتسعفنـي الدموع
هذا كل ما لدي من اقتحام
و السلام
*　　　*　　　*

ما عاد في القبر متسع لقبر

ما تخيلته قبراً
كان غرفة تكنولوجية
تدوس على زر
فتحصل في كل مرة على غرفة جديدة
و أنت في مكانك لا تبارحه
دست على الأزرار فجاءت الغرف
(جاءت البرجوازية و الليبرالية و المازوشية)
مرة غرفة جلوس
و مرة غرفة وقوف
و مرة مكتبة
و مرة ملعب تنس(فالغرف التكنولوجية لا حدود لها)
و مرة حمام عربي
و أخيراً غرفة نوم
{ نقطة نظام }
غرف النوم: بأسرتها التي على تلك الشاكلة
تستلزم وجود امرأة
(و غير مهم أن تكون على نفس الشاكلة)
لكن دلني على الزر الذي أضغطه فتطلع الأنثى من السرير على السرير
ملساء دعجاء حوراء
صلعاء العانة
ضغطت كل الأزرار فلم تنكشف الأسرار
جننت بحثاً عن زر المرأة
و لم تطلع امرأة
طلعت الأرائك و الأسرة و الثلاجات و الذهب
و البانيوهات و الرفوف و الخلاطات و الكتب
لم يأت الفرج

فبحثت عن زر القبر
فدلني على وجوده بصافرة إنذار
وجدته
دسته
لم يطلع القبر
ما عاد في القبر متسع لقبر

هكذا الشعر

القصيدة متعبة
هاتوا لها مخدة و مرتبة
أقطعوا عليها طريق الأحلام
افتحوا نافذة الكوابيس

*   *   *

القصائد متخمة باللغة
فلتضرب عن الطعام

*   *   *

كفي
ما الشعر
ما القصيدة
تعبنا
توقفوا

Stop
هيا جميعاً للنوم

حكاية

كانت هناك امرأة جميلة
لا تعرف كيف تستغل جمالها
و ما من أحد كان يرثي لحالها
المهم: في الصباح تقول لنفسها أنها ستستغله ظهراً
و في الظهر تؤجل استعماله حتى الأصيل
و أصيلاً تؤجل استعمال الجمال حتى العشية
و هكذا دواليك
و ذات صباح تأملت المرآة
فلم تجد التفاح و العنب و الرمان
و مكانهم وجدت الصبار و السدر و الدليب
أقعت على الأرض و بكت
ثم جاء رجل و أخذ بيدها و واساها
قال لها: هناك مكان لك بيننا
كان مؤلف حكايات على شاكلة كليلة و ألف ليلة
و دمنة و الوحش و الجميلة
لكنه لم يجد لحكايتها عبرة تستخلص منها أو مثل
أنا متأكد من أنه لم يصل إلي عبرة أو مثل
لأنه لو كان فعل لصدعنا برعد من العبر و المثل
أمثال و عبر حكيمة تسبب الصداع و الأوجاع
من صدقها نجا ومن كفر بها ضاع
ربما تزوجها
في كل الأحوال الحكاية بين أيديكم, أفعلوا بها ما شئتم

ملحوظة: لم تكن الجميلة تضع أي ماكياج

النعش

أنا شاعر البحر المهدد بالغرق
أنا شاعر النوم المبدد بالأرق
أنا شاعر النار الجليلة تحترق
أنا شاعر الغرف الصغيرة و الحقيرة
و المطاعم و الفسيخ
أنا شاعر السمك المذهب
و الثعابين اللئيمة
و التماسيح الخبيثة
و السلاحف
و البغايا و الرعايا و العصابة و الكآبة و ال...
أنا شاعر
أنا شاعر
فتهيأوا لقصيدتي
و قنابلي و خناجري
أنا شاعر
أنا شاعر
و تهيأوا لقصيدة جوفاء
تصلح كي تكون نعشاً

في الناس أو في البيت

في المسافة بين وكري و الناس
هناك حدائق غير منظورة و ينابيع تلمع بالخلود
و دوماً في غدوي و رواحي فاراً من الناس إلي وكري
أو من وكري إلى الناس
يهمس لي خرير المياه و يداعبني عبير الورود
و ذلك لا يدوم إلا لأقصر برهة
أعود بعدها للتفكير بشأن ما ينتظرني من ويلات
فيّ
و في وكري
و في الناس

يوم

حفنة أيام تمضي
حفنة أيام تأتي
و هناك بعيداً عن كل الأيام
و عن كل الساعات
يوم لا تشبهه الأيام
يوم فر من الأيام
وبات قريباً و غريباً
لا أدري هل أفلت مني
هل فات
أم سيجيء
أني دوماً انتظره
لا أعرف هل فات
أم سيجيء
لا أدري
هل استقبله
أم سأودعه
لا أدري

قصيدة مؤلمة

لكل صبح جرحه
لكل ليل غوله
فيا صباحات الجراح
و يا ليالي الغيلان
كللتنا جراحك و دهستنا غيلانك
حلي عنا
*   *   *
في كل ساعة عقرب
و كل دقيقة شوكة
و كل ثانية لسعة
و كل خطوة أبرة
و أنت من وخزة إلي صفعة
فلدغة فلسعة فضربة
تمضي
مكللاً محاصراً بالليل و الصباح و الغيلان و الجراح
تمضي موشوماً جريحاً لا لغة عندك غير الهذيان
*   *   *
في كل مكان تحل فيه
أزميل يهدمك و يشكلك من جديد

ذئب وحيد جائع

يا أيها الشعراء
كفكفوا الدمع و نكسوا الرايات
فحربكم خاسرة
لا تحلموا بعقد مؤتمر للسلام
و لا بمباحثات و كلام
فعدوكم شبح لا يدركه رصاص الحروف
عدوكم قناص فخاخه مقيمة في خطواتكم
و في حبركم
يكفي كونه هناك في اللامكان
لتظل الهزيمة تتهددكم
هيا لملموا قصائدكم المثخنة بالجراح
أدفنوها في التراب
أو دعوها للذئاب
هي لا تسمن و لا تغني من جوع
لكن ما يصنع ذئب وحيد جائع
في برية شاسعة

قصيدة وطنية

يسموننا الشعب
نقيم في الصراط المستقيم القائم بين نار السلطة و جنة المعارضة
لا نعرف إن كان مستقيماً أو معوجاً لكنه كلام يقال و نصدقه
لأننا لا نجد الوقت لتمحيصه تمهيداً للتصديق و التكذيب
الذي هو شأن من صنعوا الصراط و استدرجونا إليه
لا وقت لدينا لتحري المسائل.
من اليسار تأتينا كتب نظرية لنرث الحكمة
و من اليمين صكوك غفران للمرور إلي الجنة ذات يوم
من تحت ضائقة معيشية لنتعلم الحياة
و من فوق قنابل لنتعلم الموت و العولمة
تطأنا الأقدام
يقال أنها أقدام ملائكة و أبالسة عابرين في طريقهم إلى جهنم أو الفردوس
لا يهم
دع الأقدام تدوس
فنحن نطأ بعضنا
نحن يافطة يعلقون عليها الشعارات
بالرصاص و الصواريخ الدم و العرق
(ما أشد ارتباط اسمنا بالدم و العرق)
نحن الشعب
الشعب؟؟
يا لها من نكتة

صرخة ما بعد المنتصف

تتسلل صرخة ما بعد انتصاف العمر و الليل
إلى نخاع العظام فتقشعر
صرخة تأتي من خرائب بطرف البلدة
و من البلدة ذاتها
و من خرائب مهجورة في الذاكرة
تفتت تحت ضربات معاول الليالي
الكثيرة المتشابهة المرة
صرخة واحدة التعدد
لفتاة تغتصب
و لإنسان يتلقى طعنة من الخلف
لمتوحد هده أسى التأمل في ليل الليل
لوحوش غدت فرائس
لوميض لا يصرع الظلام
صرخة توقف شعر الجلد
و تتعذب منها الروح
و تفتح للوعي طاقة على هوة العدم السحيقة
و هي صرختك
مطارداً و تائهاً في الكوابيس

لعثمة فصيحة

بين الحياة
و تلعثمها
و الموت
و فصاحته
نغدو و نروح

العذوبة العابرة

حلو و عذب هو ذلك الإحساس المباغت بالنجاة
و لأن عذوبته خاطفة و جماله فريد
فهو يمضي سريعاً
لنعود ثانية نرتجف في انتظار الكارثة
و كم نبرع في كتمان خلجات مشاعرنا
في ليل الانتظار الطويل
تعلمنا و ما لقننا أحد
إحساسنا العابر بالنجاة استثناء
لذلك لا شبيه لعذوبته و جماله
ترقبنا الهلوع للكارثة قاعدة
و من هنا هوله و فظاعته

عثراتنا و جراحنا

العالم هش و قابل للانكسار في كل لحظة
و لأننا نحمله قاطعين به
دروباً ملؤها المطبات و الحفر و الفخاخ
و لأننا نقتحمه بعضلاتنا
كما بخلجاتنا و مشاعرنا
فهو دائم التحطم
دائم التناثر
لذلك نتعثر في نفاياه
لذلك تجرحنا شظاياه
لذلك يضيع منا في
لحظة التشبث القصوى به

عبق النوافذ المغلقة

متعثراً في حطام الأمكنة أبحث عن مكاني
ضائعاً في الزمن أنقب عن زمني الضائع
جسدي المحموم تتناوب مصابيح الأرصفة
و شعاع الشمس
على محوه و رسمه
رسمه و محوه
يا لدواري في داري
يا لدواري محدقاً في واجهات الدور
متوسلاً لصمت الليل أن يفهمني
لهجير الظهيرة أن يبني لي
جسراً* صالحاً للتواصل مع العالم و أشياءه
في كل ساعة عبق هارب من زمني الضائع
في كل مكان نافذة مغلقة على مكاني المفقود
يعرف العبق كيف يهرب مني
تعرف النوافذ كيف تدمي مشاعري
و أنا أخبطها بكل لهفتي و جنوني

---

* يمكن أن تقرأ جسداً

خذلان

خردة جسدي المهدود
تدب فاقدة وجهتها
ما من شرارة
تشعل الجسد
ما من ريح
تكنس قمامة الروح
الغبار و النور
أشعلا أوار حربهما فيّ
ثم تهادنا
هاهما متقاطعان, متداخلان
و أنا المقطّع
أشبه سكيناً خذلها السفاحون المهرة
وعدوها بدماء ضارية
و أحشاء مندلقة
ثم أهدوها للمومس
لتقطع بها السلطة
هاهي قد صدئت
و صمغة رأسها محتوتة

ظمأ تاريخي

التاريخ المروي يروي:
أن القائد جرد حملة
أن الشاعر أخضع جملة
و التاريخ المروي
يشرب من نبع لا ينضب
يمشي عكازته لا تتعب
و هنا في هذي البرية
في الباك تاون
أو في طيات الحلم المجهض
يمشي التاريخ الظمآن
يعرج منكسراً في مشيته
مقهوراً في سحنته
لا عكازة تأويه
*****
من يروي التاريخ الظمآن؟!

هذا بعض ما كان من أمر البهائي و حكايته أما الحكاية القادمة فكأنها كتبت نفسها بنفسها لأنني لا أذكر أنني عثرت عليها في قارعة الطريق, كما أنني لا أذكر أن شخصاً قد رواها لي و قد مزقت الصفحات التي ضمتها و عندما عدت إلي الأوراق مرة أخرى كانت ماثلة فتركتها و شأنها خوفاً من اللعنة التي قد تصيبني إذا ما أعدت الكرة و حاولت التخلص منها و قد لاحظت عليها أن الأقواس تحاشتها و لم تجرؤ على التدخل فيها كما هي عادتها و استنتجت أن كلاماً تخاف منه الأقواس المشاكسة لا يمكن أن يوصف إلا بأنه وطن الخوف و الحكاية على النحو التالي

حكاية فرضت نفسها, أو المثول

انتفضت من نومي فزعاً هلوعاً يابس الحلق و وميض النصال المسننة يلاحقني و ابتساماتهم الصفراء تزكم الظلام بريح نتن. كانوا قد جردوني من ثيابي و حملوني إلي منصة أسمنتية باردة و قلبوني إلي وجهي بعنف و أعمل أحدهم إصبعه الضخم في مؤخرتي و خشيت أن أرفع صوتي بالتأوه أو أن استغيث ربما لكيلا يتضاعف شعوري بالخزي و العار و ربما خوفاً من أن تؤجج استجابتي بالتألم رغبتهم المتوحشة في الإيذاء و لكن عندما عادوا و قلبوني على ظهري و شد أحدهم عضوي بعنف و عندما لمحت في متاهة الضياع تلك سلاحاً أبيض, لم أتمكن من تمييزه, أهو سيف أم خنجر أم حربة أو أي شيء من منتجات الحضارة الحديثة الكثيرة, يرتفع في الظلام عجزت و ما وفقت في كبح صيحة الفزع العظيمة التي بدأتها في النوم و أكملتها صاحياً. أمضيت الليل متقلباً نهباً للقلق و الخوف من طلوع الصباح.

عندما استدعاني كبير الدائرة إلي مكتبه نظر إلي باحتقار و باختصار و قال أنه يتوجب عليّ التكفير عن ذنبي و صمت قليلاً قبل أن يقول أن الذنب كبير إلي درجة أن الكفارة وحدها قد لا تكفي, مشكلتك كبيرة, قال لي, و ربما يتعين عليك التكفير و أداء الجزية و القضاء مجتمعين, و سألني أتعرف ما الجزية, و انطلق يقهقه و كرشه أرتج, و سألني إن كنت مواظباً على حضور حصص الدين على أيام الدراسة, و أختتج قهقهة و ضحكاً و هو يسألني عن زكاة الماشية حتى اغرورقت عيناه بالدموع.

بعد ذلك جاء إلى البيت شاب بدراجة بخارية و سلمني استدعاء عندما فضضته وجدت فيه أمراً بالمثول في مكاتب الأمن غداً.

ذهبت في اليوم التالي و قضيت النهار كله في غرفة انتظار معتمة و كان هناك رجال ضخام بنظارات سوداء يروحون و يغدون, و كنت مرمياً ككيس القمامة و الطواويس الجارحة تتبختر عندما وصلني صوت صرخات فائض العذاب و انتهى اليوم الأول بأن سألني أحدهم عن سبب تكومي هكذا فقلت متلعثماً أنهم استدعوني فضحك باصفرار و أمرني بالانصراف و المثول غداً و بينما أتعثر خارجاً ضحك مرة أخرى بتلذذ.

و تتابعت الأيام و أنا أتكوم هناك, أمثل في الصباح و لا أغادر إلا مع حلول الظلام, أسمع الصرخات الملتاثة و أخفي رعبي الكبير. و بعد أن حققوا معي اكتشفت أنهم يحفظون العبارة التي تفوهت بها في لحظة الطيش تلك عن ظهر قلب.

كنت قد شاركت في كل الحشود السابقة, و في ذلك اليوم عندما كان رئيسي في العمل يتأكد من أن جميع أفراد وحدته في طريقهم إلى البصات للاشتراك في المسيرة التي سيخاطبها صاحب الأمر و النهي تمكن مني ذلك الشعور القوي الذي ينتابني في كل مرة يسوقوننا فيها لنكون نحن الحشود, ذلك الشعور المتمثل في إلقاء كلام فكه عن تلك الحشود المتكررة بل و الامتناع عن الذهاب. و قد فعلتها

فقد قلت لرئيسي: هل سيجلد من يتغيب عن الطابور يا عمي الناظر و ابتسمت و انتظرت أن يتجاوب الجماعة مع هذه الحكمة المرحة لكن الذي حدث هو أن الجو تكهرب و حدجني مندوب الأمن الايجابي بنظرة أقشعر لها بدني و كادت تنزع قلبي من مكانه.

و من يومها و قلبي واقع تحت رحمة أقدامهم القوية يتقاذفونه كالكرة. قالوا لي أنت مرصود و أنفاسك معدودة و ربما ألأيام التي بقيت لي على ظهر الأرض معدودة هي الأخرى ثم قالوا لي أذهب و لا تعد لمثلها و سيتم استدعاؤك للمثول قريباً و عندما خرجت ما كنت أعرف وجهتي و قادتني الخطى إلي المصلحة فتجنب الزملاء النظر إلي و لم يردوا السلام و بعد أن تجولت في تلك الأروقة المكعكعة لبعض الوقت جاءني أحد السعاة و قال أن الرئيس يأمرني بالمثول بين يديه.

مثلت فقال مباشرة أنه لا مكان لي بينهم و وصفني بأنني ناكر للجميل و عاض لليد التي أحسنت إلي و عاق للوطن الذي منحني مهنة محترمة فغادرت المصلحة إلى الشوارع الضاجة بالبشر و المركبات و علي كاهلي ما لا يطاق من الأحمال. كان قلبي يرتجف و أنفاسي تثاقلت. سيطلبون مني المثول و ستوجه إلى حشاشتي ضربة متقنة.

نمت و قد أيقظني الكابوس المفزع الذي أوردته في بداية القصة. كائن متوحد و مقطوع من شجرة مثلي يصعب عليه احتمال قصة المثول هذه. و خطرت لي فكرة عظيمة نفذتها على الفور. لن أجد فرصة للصراخ أعظم من هذه. لا معنى للصراخ و أنا نائم. أحسن شيء متاح لي هو الصراخ بلا توقف. و هكذا انطلقت أمزق الليل بصرخات هائلة كضربات فرشاة مغموسة في الأبيض يوجهها رسام مبتديء إلى قماشة سوداء.

غراميات

كمدخل و تدخّل في مسألة الغراميات يود المتسكع أطلاعكم على أبيات متسكعة تجسد الأنثى \ الحلم أو الحلم \ الأنثى أو الحنثى أو الأنثولم في المخيلة المتسكعة فأشربوا معنا هذا الكأس و لا تقنطوا بل تمغنطوا:

أحبك جداً لأني مشرد　　　أحبك جداً لأنك شارع
أحبك جداً لأنك ملجأ　　　أحبك جداً لأني ضائع
أحبك جداً لأنك مخزن　　　أحبك جداً لأني بضائع
أحبك جداً لأنك كوكب　　　أحبك جداً لأني تابع
أحبك جداً لأني مظلم　　　أحبك جداً لأنك ساطع

و تلكم الأبيات تنم عن وضاعة يكتسبها المتسكع اكتساباً و تحل في آهابه حلولاً لكثرة فشله و خيبة أمله و التعامل معه بوصفه بضاعة كاسدة تأنف منها المخازن و تعافها القمامات و ليس أدل من استخدامه للمطية التي يسمو بها الإنسان في النزول إلى أسفل سافلين. أو لم يكن أشرف و أكرم له أن يجعل التبعية أرقي قليلاً مما هي عليه في تلك الأبيات كأن يقول:
أحبك جداً لأني فارس　　　أحبك جداً لأنك قاطع
فيكون بذلك قد ضمن الشرف و الشجاعة له و لها.
أو أن يقول:
أحبك جداً لأني عابد　　　أحبك جداً لأنك جامع
فيجمع الدين و الدنيا و العاجلة و الآجلة.
أو أن يقول أحبك جداً لأنك حاتم　　　أحبك جداً لأني طامع
فيثبت بذلك كرمها و طمعه الإيجابي
البيت الوحيد المشرّف و المشرق هو بيت الكوكب و هو في الحصيلة النهائية تكريس للتبعية كعقيدة في الحب الذي يرى الحكماء أنه لا ينجحه سوى التكافؤ لكن المتسكعين معذورين فقد تربوا و عاشوا في عالم تحكمه التبعية و الإخضاع و القمع و بذل كل أنواع التنازلات للحصول على أوضع أشكال الأمتيازات التي لا تضع نهاية للتبعية بل تهندمها و تشذبها و تجعل منها ترياقاً لا مناص منه لاتقاء سموم الوجود و الواقع و الحياة.
و كيف يعشق المتسكع؟
باختصار هناك عدة مستويات فهو مثلاً يعشق عشقاً فعلياً بأن يلتقي بحبيبته فيطارحها الغرام و ربما يستدرجها إلي مطار (و هو نوع من المطارات مخصص لإقلاع و هبوط الطائرات المخطوفة) و حقيقة الأمر أن العشق الواقعي الحقيقي الفعلي قليل في العالم التسكعي و على قلته فان له نهاية واحدة مكررة هي الشاكوش الذي يقع على رأس المتسكع و يقوده الشاكوش أما إلى قطيعة مؤقتة

مع العشق أو الارتماء في أحضان العشق الخيالي من الفئة (أ) الذي قوامه أن المتسكع يتدله (ويتدلى كالمشنوق) ببنت من الطراز صعب المراس فيحبها من بعيد لبعيد و لا يجرؤ على الاقتراب أو المكاشفة أو المصارحة و يعيش في اغتراب حتى تتزوج المحبوبة فيشرع في صناعة أنثى خيالية (ب) يبثها لواعج الغرام و يسهر الليالي مستعيداً التفاصيل الصغيرة المتعلقة بها و المصيبة أن بنات الأفكار مثلهن مثل بنات الواقع يلذ لهن استخدام الشاكوش فهذه الأخيرة لا تتردد في تصويب ضربة صاعقة من عالم الخيال تنزل على أم رأس أهل صاحبنا فلا يعود يعي ما هو الحب و ما شواكيشه و يقتنع بأنه لم يخلق للتربع على عروش كوشه.

هكذا الغرام في دنيا التسكع و الأفضل إدارة الظهر له و عدم القيام بأي حركات تزيد الطين بلة و تسبب للمتسكع ويلات و جرس لا داعي لها.

لن تنتهي لكن دعونا نتوقف هنا